أ. أبوبكر غاييغو

مذكرات بحّار

قراءة في ثنائيات معاصرة

ترجمة: د. بسام بشير

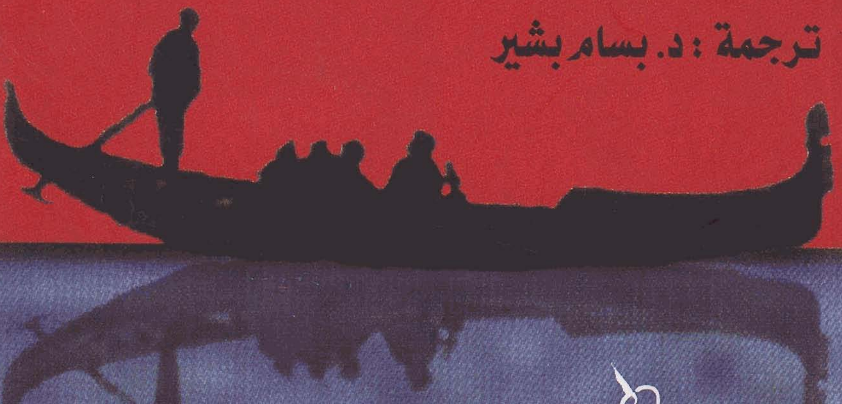

سلسلة الأندلس

مذكرات نجار

قراءة في ثنائيات معاصرة

أ. أبوبكر غاييغو

ترجمة :
د. بسام بشير

سلسلة الأندلس

سلسلة الأندلس ®

هاتف: ٣٣١ ٥٧ ٧٢ - ٣٣٣ ٦٢ ٢٥
البريد الألكتروني:
editeslsa@mail2world.com
الموقع على الإنترنت:
www.editelsa.com

جميع الحقوق محفوظة ©

جميع حقوق الملكية و الأدبية و الفنية محفوظة لـ«دار الثقافة و التراث (سلسلة الأندلس) سورية - دمشق، و لـ«دانيال غاييغو»، و يحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقه الناشر خطياً.

© دار الثقافة و التراث
(سلسلة الأندلس)،
سورية - دمشق
Daniel Gallego ©

مطبوع في سورية - دمشق
٢٠٠٦ م

العنوان: مذكرات بحار
الشارح: قراءة في ثنائيات معاصرة
المؤلف: أ. أبو بكر غاييغو
ترجمة: د. بسام بشير

إخراج: ياسين الأندلسي
تصميم الغلاف: أ. أبو بكر غايبغو
الناشر: دار الثقافة و التراث
(سلسلة الأندلس)
الموزع: المشرق للكتاب

القياس: ١٢ × ١٧
عدد الصفحات: ١٤٥
عدد النسخ: ١٠٠٠

الطبعة: الأولى، ٢٠٠٦ م

يطلب من:
المشرق للكتاب
٠٩٤٦٦٩٥٩٥

يطلت في لبنان من:
دار البشائر الإسلامية
٠٠ ٩٦١ ١ ٧٠٤٩٦٣

دار الثقافة والتراث
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - سورية ، ص. ب : ٧٢٣٥
هاتف : ٨٦ ٤٠ ٤٦١ (١١- ٩٦٣+)
٢٣١ ٧١ ٤٦٣ - ٢٣٢ ٧١ ٤٦٣
فاكس : ٢٣ ٧١ ٤٦٣
البريد الألكتروني :

مذكرات بحار : قراءة في ثنائيات معاصرة / أبو بكر غاييغو ؛
ترجمة بسام بشير .- دمشق : دار الثقافة و التراث ، ٢٠٠٦
.- ١٣٢ ص ؛ ١٧ سم .- (سلسلة الأندلس) .

١ - ٨٦٨ غ ا ي م ٢ - العنوان ٣ - غاييغو
مكتبة الأسد

بسم الله الرحمن الرحيم

المؤلف في سطور

وُلد الأستاذ **أبو بكر غاييغو** في مدينة ثَراگوثا (Zaragoza) - إسبانيا عام ١٩٥٥ م . ترعرع في شبيبته في أحضان دكتاتورية الجنرال **فَرانكو** (Franco) ؛ ذاك الواقع ترك بصمته الفكرية على سنواته الجامعية الأولى : أولاً في كلية الحقوق ثُمَّ في كلية التاريخ ، في جامعة ثَراگوثا .

كانتِ الحياة الفكرية و السياسية في عهد الديكتاتورية فقيرةً جدًّا لدرجة أنه قرَّر مغادرة بلاده و الذهاب إلى باريس حيث درس الأدب و الفلسفة في جامعة السورْبون (Sorbonne) و ڤانْسَنْسْ (Vincens) . و لأنَّ باريس المتدهورة لَم تروي ظمأه بدأ سلسلة أسفار أخذتْ به إلى إيطاليا ، يوغسلاڤيا (سابقاً) ، اليونان ، لندن و وارسو حيث تزوَّج هناك .

كان انقلاب الجنرال **يَرُوسَلْسْكِي** (Jaruzelski) عام ١٩٨٢ م قد جعله و عائلته يغادر و يعود بأدراجه إلى إسبانيا حيث بدأ عمله كأستاذ للغات . و في سنة ١٩٩٥ م تَحوَّل إلى الإسلام

وذهب إلى إستانبول حيث درس العلوم إسلامية و عمل على إدراة مدرسة لتعليم القرآن للأطفال .

في تلك المرحلة بدأ كتابة *Before the sun is folded up* (*قبل أنْ تُطوى الشمس*) و أعمال أخرى في الأدب و الفلسفة و التي تابعها في دمشق التي وصل إليها في عام ٢٠٠٠ م و حيث يعيش فيها .

و هو الآن رئيس قسم اللغة الإسبانية في شعبة الدراسات الإسلامية باللغات العالمية في معهد جمعية فتح الإسلام قسم التخصص .

أفكار و معتقدات

كُنَّا نقول ، و كانوا يقولون ، و قد قاله الكثيرون من قبلُ ، و سيقوله الكثيرون من بعدُ : إنَّ أفكار أيِّ رجل - أو ما ندعوه في اللغة العامية «أفكاراً» - لا تُمثِّل معتقده الذي هو أرض محظورة أقيمتْ عليها قلعةٌ يصعب هدمها و اقتحامها .

كنا نقول أيضاً ، و يقال ، بأنَّ إحدى أكبر العوائق التي تَحول دون الاتصال بين بَني البشر تكمن في المعاني التي نَمنحها للكلمات ؛ فإنْ جَمَعنا هاتَيْن الملاحظتَيْن لوجدنا أنَّ اضطراب المعاني يقودنا إلى الخلط بين «الأفكار» و «المعتقدات» ، و يَحملنا - في الوقت نفسه - على الاستنتاج بأنَّ الرجل متناقض إنْ لَم نقل منافق .

منذ وقت ليس بالطويل روى لي أحد الزملاء مُسْتاءً كيف أنه اكتشف أنَّ أفضل أصدقائه عنصريٌّ مخادع : "قال لي مغتاظاً : لاحِظْ أنه بعد أنْ هاجم بشِدَّة الانْحراف الفكري الذي يعنيه أنْ

يكون الفرد عنصرياً ، و بعد أنْ صرَّح بتقديره للسود في آلاف الأقوال أثناء آلاف المناقشات ، فقد انتفض عندما أبلغَتْه إحدى بناته – و كانتْ قد قرَّرتِ الزواج – بأنَّ زوج المستقبل – صهرَه – هو شخص أسود ؛ قال لَها مسعوراً : "سأقتُلكِ إذا أقدمتِ على الزواج مِن أسود !" " .

كان اضطراب هذا الصديق هو نتيجة لذلك الخلط بين «الأفكار» و «الاعتقاد» ، فكيف يُمكننا أنْ نعرِّف هذين المفهومَيْن بطريقة نستطيع معها أنْ نلاحظ الفرق الشاسع بينهما ؟

في المقام الأول نستطيع أنْ نعرِّف «الأفكار» بأنها «خواطر»، بِمعنَى أنها أفكار تَخطر على بالنا أو على بال الآخرين و نتبنَّاها نَحن – في أغلب الحالات – مؤقَّتاً ؛ إنها كقطع الخشب التي يُحاول الطفل أنْ يصنع منها بناءً هندسيًّا ، فإنْ لَم تنفع إحداها غيَّرها بسواها إلى أنْ يصل إلى الشكل الذي يقرب من الشكل الذي يريد هو صنعه ؛ مع ذلك ففي استطاعته في اليوم التالي أنْ يهدم بناءه ويبدأ بناءً آخر بقطع أخرى . فـ«الأفكار» إذن هي : عناصر قابلة للتبديل يتسلَّى بِها النشاط الفكري الطبيعي للبشر .

قد لا نلاحظ ، و نحن نشاهد الفيلة في الْهند تسير في الشوارع أيام العُطَل ، أنها تَحمل في خرطومها عصىً خشبيةً أو حديديةً ... إنَّ سيرها من دون هذه العصا ينطوي على خطرٍ كبير قد يكون قاتلاً ، ذلك لأنَّ خرطوم الفيل لا يمكن أنْ يكون ساكناً من دون شيء يحمله و يجعله في حالة من الاسترخاء و الْهُدوء . وتفكير الإنسان قريبُ الشَّبَه بِخرطوم الفيل ، فهو لا يستطيع أنْ يكون مستقرًّا هادئاً ما لَم يَجد شيئاً يتسلَّى به و يشغله ؛ و ما هذا الشيء سوى إعمال متواصل في الفكر تنتج عنه أفكار مصقولة نوعاً ما ، موزونة إلى حد ما ، و عفوية بقدر أو بآخر .

يعلّق **أورْتيگا إي گاسَتْ** (Ortega y Gasset)[1] الذي درس في أحد كتبه العلاقة بين «الخواطر» و «الأفكار الأساسية» أو «المعتقدات» :

---

[1] **خوسَه أورْتيگا إي گاسَتْ** : فيلسوف و كاتب مقالة إسباني . اشتهر بنقده ذي التوجُّه الإنساني للحضارة الْحَديثة . وُلد في مدريد و حصل من جامعتها على الدكتوراه في الفلسفة . واصل تَحصيله العلمي في جامعات لَيْبْزيغْ (Leipzig) و بَرْلِينْ (Berlin) و مارْبورْغو (Marburgo) . نال درجة الأستاذية في علم ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقيا) في جامعة مدريد (١٩١٠ — ١٩٣٦ م) . أسهمتْ مقالاته و محاضراته و كتاباته الفلسفية =

نشير بتعبير «أفكار الرجل» إلى أشياء شديدة التباين؛ نشير – على سبيل المثال – إلى الأفكار التي تَخطر على باله حول هذا الشيء و ذاك ، و إلى الأفكار التي تخطر على بال الغير فيكرِّرها هو و يتبنَّاها . و يُمكن لِهذه الأفكار أنْ تحتمل درجات متباينة من الحقيقة ، بل يمكن أنْ تكون «حقائق علميةً» .

مع ذلك فإنَّ هذه الفوارق ليستْ بذات بال إذا ما قورنتْ بالمسألة التي سنطرحها الآن و التي هي أكثر جذريةً . **فالأفكار** – سواء أكانتْ عامية أم نظريات علمية دقيقة – هي دائماً خواطر تنشأ في الرجل من عنديَّاته أو بتأثير من آخرين .

لكن هذا يعنِي أنَّ الرجل كان موجوداً قبل أنْ تَخطر على باله الفكرة أو قبل أنْ يتبنَّاها ، فالفكرة – سواء نشأتْ بِهذه الطريقة أم بتلك – إنما تنبع في داخل حياة سابقة لَها ، و ليس هناك من حياة إنسانية لا تقوم على أساس معتقدات أساسية أو – لنقل – لا تركب فوقها .

= و السياسية في النهضة التي شهدتْـها الحياة الثقافية الإسبانية في العقود الأولى من القرن العشرين . توفي في مدريد عام ١٩٥٥ م .

الحياة هي : الاتصال بالعالَم و الاتصال بالذات ، لكن هذا العالَم و هذه الذات اللتَيْن يتقبَّلهما الإنسان تظهران له على هيأة تفسير و على هيأة «أفكار» حول العالَم و حول الذات .

هذه «الأفكار الأساسية» أو «المعتقدات» لا تظهر في يوم معيَّن أو في ساعة معينة من حياتنا ، و لا نصل إليها بفعل تفكيري خاص ، و هي ليستْ - في مُجمل القول - أفكاراً نَمتلكها و لا خواطر و لا حتى تبريرات ، بل هي - على العكس من ذلك - «معتقدات» تُمثِّل محيط حياتنا ، ولذلك فهي لا تمتلك طبيعة المضامِيْن الخاصة الواقعة ضمن هذه الحياة .

يُمكن أنْ نقول بأنها ليستْ أفكاراً نَمتلكها ، بل هي أفكار نكون عليها ، و لِكونِها معتقدات ترسَّختْ فينا وتجذَّرتْ فإنها تختلط أمامنا بالواقع نفسه - إنها عالَمنا و إنها ذاتنا - و تفقد بالتالي طبيعة الأفكار و التفكير الخاص بنا والذي كان يمكن ألا يخطر على بالنا .

يُمكننا أنْ نضيف إلى عرض المفكِّر **أورْتيغا إي غاسَتْ** أنَّ «الخواطر» هي السماء المتغيرة ، أيْ الغيوم و الرياح و المطر ، و هي

عرضية عابرة حتى إذا كانتْ دائمةً ، إنها أنواء الجو ؛ بينما يُمكننا تشبيه «الأفكار الأساسية» أو «المعتقدات» بالأرض أو بالْمَجال ، بالمكان الذي نَحياها فيه ، المكان الذي نكون فيه نحن . الأفكار تَحدث و لكن في مَجال محدود و موجود ، دائماً تَهطِل على شيء و تَحتاج إلى هذا الشيء ، إلى هذا الْمَجال لِكي تظهر عليه الخواطر . ما معنَى هذا ؟ أو لِنقلْ : ما أثر ذلك في حياتنا اليومية ؟

معناه أننا إذا ما حلَّلنا «الأفكار» و «الخواطر» بدلاً من تحليل «المعتقدات» و «الأفكار الأساسية» فإننا لن نتمكن من التعرُّف على شخص أو على شعب أو على عصر من عصور التاريخ .

في مقدورنا الآن أنْ نفهم على نحو أفضل ما الذي جرى لصديق زميلي عندما غضب فجأةً أمام تصوُّر صهره المستقبلي الأسود ؛ فربَّما كانتْ العنصرية في «فكره» انْحرافاً بفعل ما قرأه أو ما سَمع به من الأشخاص الذين تردَّد عليهم ، و هو ما استدعى ألا يبدي أدنَى إشارة على عنصريته في أيٍّ اجتماع أو لقاء بالأصدقاء ؛ أما على مستوى «المعتقدات» فالسود بالنسبة إليه مخلوقات دُنْيا لا يتوجب عليه الارتباط بِهم عائليًّا ؛ فكيف جرى هذا كلُّه في وعيه ؟

لقد رأينا أنَّ «الأفكار الأساسية» أو «المعتقدات» كانتْ موجودةً عندما ظهرتِ «الأفكار» و «الخواطر» . إننا لا نتعرض في تفكيرنا إلى «الأفكار الأساسية» مهما بدا ذلك متناقضاً ، لأنها تكوِّن جزءاً من كياننا و هي عالَمنا و كوننا ؛ و كما يقول **أورْتيغا إي غاسَتْ** : "نحن نعتدُّ بـــ«الأفكار الأساسية» ، أما الأفكار الأخرى فنفكِّر بِها" .

فعلاً ، فاعتدادنا بالأفكار يَجعل مُجرَّد التفكير بِها أو استحضارها إلى الفكر أو إلى الذاكرة أمراً غير ضروري .

لنضرب على ذلك مثلاً من حياتنا اليومية : اتَّصلَ بنا أحد ما أو صديق من الأصدقاء مقترحاً أنْ نَخرج معه في جولة ، فكَّرنا في الحسنات و السيئات ثُمَّ ردَدْنا عليه بالموافقة . لِنحلِّل الآن كل ما جرى التفكير فيه و كل ما لَم يَجْر التفكير فيه بسبب اعتدادنا به وتعويلنا عليه : لقد أخذنا في الْحُسْبان حالة الطقس في الشارع من برد أو حرٍّ و إنْ كان سيتوجب علينا - لِهذا السبب - أنْ نتدثر أو نرتدي ثياباً خفيفةً ؛ و فكرنا في إمكانية تناول شيء خلال الجولة وفي ضرورة التحقُّق من امتلاكنا نقوداً كافيةً ، و ربَّما تذكَّرنا طبع صديقنا و المواضيع التي في مقدورنا الحديث معه حولَها و تلك التي

يفضِّل تَجنُّبها ... و فكرنا في ذلك كلِّه ، لكنَّنا لم نفكر و لو للحظة في الشارع ! لَم نفكر إنْ كان هناك شارع نتجول فيه أم لا ، و هو الشيء الأهم الذي لولاه فلن يتحقق الأمر الآخر . فلماذا إذن لَم نفكرِ في الشارع ؟ ببساطة : لأننا نعتدُّ به .

ففي لَحظة من وجودنا زُرعتْ في كياننا «فكرة أساسية» ، مفادها أنَّ الأشياء تظلُّ كما هي إنْ لَم يَحدث انقلاب عنيف ؛ فإنْ فتحتُ باب بيتِي فلا بُدَّ أنْ أجد الشارع ، و إذا رفعتُ غطاء القِدْر فلا بُدَّ أنْ أجد الفاصولياء التي وضعتُها للطبخ . هذا الاعتقاد و هذه «الفكرة الأساسية» ليستْ هي بـــ«الخاطرة» ، بل هي جزء من عالمي و من كيانِي ، و ما عدت لذلك أفكِّر فيها و ما عدت أتذكرها ، بل أنا أعتدُّ بِها و حسب .

و لكنَّ دراستنا لا يُمكنها أنْ تتوقف عند هذا المنهاج ، و هو - لا شكَّ - ضروري ساعة تحليل الأفراد و العصور و الأمم ، فعلينا كذلك أنْ نتتبع ارتباطات أخرى لا تقلُّ أهَميةً .

فالمشكلة في حالة الشارع تقتصر على فعل يومي معزول تَماماً و لا يفترض أيَّ نزاع : لا مع نفسي و لا مع الآخرين ؛ لكنَّنا - في حالة العنصرية - سرعان ما نلاحظ أهَمية التقريب بين هذين

العالَمَين : بين سماء «المعتقدات» و «الخواطر» و أرضها ، وصولاً إلى تغلّب إحداها على الأخرى - إنْ كان ذلك مُمكناً - و لتلتقي معتقداتِي بخواطري و لتصبحا شيئاً واحداً ، فهل هذا مُمكن ؟

لنحلّق قبل الإجابة فوق هذه الْمَجالات ، و لِنَر إنْ كانتِ المصالَحة بين «الأفكار الأساسية» و «الخواطر» مُمكنةً .

إنْ عُدنا إلى **ديكارْتْ** (Descartes) [٢] و شكّه الأحْمق لوجدنا أنه نصب فخًّا بقفزة المشعوذ التي أدّاها بين الشكِّ المطلق

(٢) **رَنَه ديكارْتْ** (Rene Descartes) فيلسوف فرنسي : وُلد في لا آيـا (La Haye) - فرنسا ٣١ آذار عام ١٥٩٦ م . بدأ تعليمه في الثامنة من عمره في مدرسة لا فَلَـشَه (La Fleche) في أنْجو (Anjou) و الذي درس فيها العلوم التقليدية آنذاك ، و المنطق والرياضيات و فلسفة **أرسطو** ؛ ثُمَّ التحق بكلية الحقوق في جامعة پُيْتَرْسْ (Poitiers) عام ١٦١٦ م ، و في عام ١٩١٨ م دخل المعهد الحربي في بِرادا (Breda) و خلال سنتَيْن استطاع أنْ يلتحق بالجيش البريطاني تحت أوامر الأمير **مَوْريثيو الأول** (Mauricio I) . بين عامَي ١٦٢٠ م و ١٦٢٨ م تنقّل بين مختلف دول أوربا ، و من بينها : بوهيميا و هنغاريا وألمانيا و هولندا و فرنسا . حضر عدة محاضرات في جامعة فِرانْكَرْ (Franeker) عام ١٩٢٩ م و في جامعة لَيْدَنْ (Leyden) عام ١٩٣٠ م كلاهُما في ألمانيا ؛ و مِن ثُمَّ استقرَّ في هولندا و بدأ بتأليف أعماله . في عام ١٦٤٩ م أقنعتْه الملكة السويد **كِرِسْتينا** (Christina) بمغادرة هولندا و الْمَجيء إلى إسْتُكْهُولْمْ (Stockholm) ليدرِّسها الْهَندسة . توفية في إسْتُكْهُولْمْ ١١ شباط ١٥٦٠ م .

والمعرفة التي تنشأ عنه ؛ أما الإمام **الغزالي** [٣] - رحمه الله - فقد وجد الْحَلَّ . و مع أنه بدأ أيضاً بالشك - قبل **ديكارْتْ** بأربعمائة عام - فقد أقرَّ بوجود «المبادئ الأولى» (ضروريات عقلية) ، وهي : مبادئ محدَّدة لا تحتاج إلى أيِّ سَنَد عقلي . لِنر كيف جرتْ هذه العملية :

> (...) فتحرك باطِني إلى طلب حقيقة الفطرة الأصلية و حقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدَين و الأستاذين ، والتمييز بين هذه التقليدات و أوائلها تلقينات ، و في تَمييز الحق منها عن الباطل اختلافات ، فقلتُ في نفسي : أولاً إنما مطلوبِي العلم بحقائق الأمور ، فلا بُدَّ من طلب حقيقة العلم

---

(٣) (الطبران ٤٥٠ هـ = ١٠٥٨ م - الطبران ٥٠٥ هـ = ١١١١ م) **محمد بن محمد بن محمد بن أحمد أبو حامد** حجة الإسلام **الغزالي زين الدين الطوسي** (...) .

وُلد في «الطبران» من قَصَبة «طوس» بـ«خراسان» ، ثُمَّ رحل إلى نيسابور و درس على **إمام الحرمين الجويني** ؛ و انتقل إلى بغداد و تولّى التدريس بالمدرسة النظامية فيها ، ثُمَّ ذهب إلى الحجاز فبلاد الشام فمصر ، ثُمَّ عاد إلى بلدته التي مات بها .

(*طبقات الشافعية الكبرى* : ٦/١٦١ ، *وفيات الأعيان* : ٣/٣٥٣ ، *الفتح المبين* : ٢/٨ ، *التاج المكلل* : ص. ٣٨٨ ، *تبيين كذب المفتري* : ص. ٢٩١ ، *الأعلام* : ٧/٢٤٧)

[مرجع *العلوم الإسلامية* للدكتور **محمد الزحيلي** : ص. ٣٤٢-٣٤٣ ؛ دار المعرفة (دون تاريخ) دمشق]

ما هي ؟ فظهر لي أنَّ العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، و لا يفارقه إمكان الغلط و الوهم ، و لا يتَّسع القلب لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ينبغي أنْ يكون مقارناً لليقين مقارنةً لو تَحدَّى بإظهار بُطلانِه مثلاً من يقلب الحجر ذهباً و العصا ثُعْباناً لَم يورث ذلك شكًّا و إنكاراً (...) [٤] .

و سنرى لاحقاً كيف أنَّ تلك «المبادئ الأولى» (ضروريات عقلية) تتَّصل كذلك بالأخلاق و إنْ بدتِ الأخلاق أمراً ذاتيًّا .

و يواصل الإمام **الغزالي** - رحمه الله - توضيح اكتشافه لنا بعد مرض طويل سبَّبه الارتياب :

(...) فأُعضل الداء و دام قريباً من شهرَين أنا فيهما على مذهب السفسطة بِحكم الحال لا بِحكم النطق والمقال، حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض و عادتِ النفس إلى الصحة و الاعتدال ، و رجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بِها على أمن و يقين ؛ و لَم يكن ذلك بنظم دليل

---

[٤] *المنقذ من الضلالة* للإمام **الغزالي** : ص. ٣١ - ٣٢ ؛ دار التقوى (دون تاريخ) دمشق - دار الفتح (دون تاريخ) عمان .

وترييب كلام [٥] ، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر ؛ وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمَن ظنَّ أنَّ الكشف موقوف على الأدلة الْمُحرَّرة فقد ضيَّق رحْمة الله تعالى الواسعة (...) [٦] .

و ها نحن نَمتلك كل العناصر اللازمة للشروع في التحليق والطواف في أرجاء «المعتقدات» و «الأفكار» .

هذه «المبادئ الأساسية» – و مِن دون أدنى شكٍّ – يَجب أنْ تكون جزءاً من معتقداتنا ، و لكن ليس مفردةً ، بل إنَّ هناك عناصر ثقافية – كما يقول الإمام **الغزالي** – و أُسَرية و تربوية استقرَّتْ في منطقة معتقداتنا و أفكارنا الأساسية و كوَّنتْ هناك جزءاً من بنائنا . و سيحدث الشيء نفسه مع أفكارنا أو خواطرنا ، فستوجد أفكار هي وليدة النور الذي يشعُّ من «الأفكار الأساسية»،

---

(٥) نلاحظ كيف أنَّ الجزء الأعظم من الفكر الغربِي لَم يكن إلا نسخة متأخرة من الفكر العربي الإسلامي ، فنحن نَجد في الإمام **الغزالي** – رحمه الله – كل ما قال به **ديكارْتْ** ، و نجد في **ابن حزم** – رحمه الله – كل ما ردَّده **إسْبِينوزا** .

(٦) *المنقذ من الضلالة* للإمام **الغزالي** : مدخل السفسطة و جحد العلـوم : ص. ٣٦ ؛ دار التقوى (دون تاريخ) دمشق – دار الفتح (دون تاريخ) عمان .

و ستوجد أفكار واردة من الثقافة ستدخل في صراع دائم مع سواها، بل و مع «المبادئ الأولى» (ضروريات عقلية) .

ينبِّهنا الإمام **الغزالي** – رحمه الله – إلى أنَّ تلك «الأفكار الأولى» – بوصفها السبيل الصحيح لتكوين «الأفكار الأساسية» – ليستْ هي نتاج الاستنباط العقلي و لا ثَمرة الدرس ، بل هي نتاج النور الذي يضعه الله في الصدور ؛ فالطبيعة إذن هي البداية ، لأنها موقِف البحث الصادق و الالتزام و التواضع أمام عجز العقل عن تحصيل الإجابات أو الْحُلول الخاصة بالمعرفة ؛ فعندما يقع الشكُّ لتعفف و حشمة ، لا للهو فكري – كما فعل **ديكارْتْ** حين أخذ منهج الإمام **الغزالي** – رحمه الله – من دون أنْ يفهمه – يصل ذلك النور – آجلاً أم عاجلاً – و معه وضوح تلك «المبادئ الأولى» (ضروريات عقلية) التي هي التربة حيث تستقر «الأفكار الأساسية» أو «المعتقدات» .

و حينما يداخل **إبراهيم** – عليه السلام – الشكُّ في الله القوي ، خالق كل شيء و مَن يسجد له الكون جَميعاً ، فهو ينظِّف الْمَجال الذي سيحتضن تلك «الأفكار الأساسية» لكل ما تراكم عبر الثقافة التي تلقَّاها . ينظف تلك البقاع المرة تلو الأخرى حتى لا

يبقى شيء ، و يغرق **إبراهيم** - عليه السلام - في الظلمة و في الفراغ المطلق إلى أنْ يصله نور الله ، و مع النورِ الفهمُ الواضح للأشياء . فكرة التوحيد التي يتوصل إليها **إبراهيم** - عليه السلام - لَم تكن «خاطرةً» بل «فكرةً أساسيةً» بنَى عليها بقية «الأفكار الأساسية» و«الخواطر» .

يجدر بنا الآن أنْ نتساءل : كيف يمكننا أنْ نكون واثقين من أنَّ «أفكارنا الأساسية» هي الصحيحة و بالتالي ستولِّد «خواطر» لا تتعارض معها ؟

لقد رأينا حالة **إبراهيم** - عليه السلام - و في مقدورنا الآن أنْ نحلِّلها على ضوء كلمة «رَليخِيونْ» religión (دين) .

لقد تخلَّتْ هذه الكلمة عن معناها الحقيقي ، و لكنَّها اتَّخذتْ - بالبقية الباقية من معناها - معانِي سلبية و متناقضة ، فمِن اللازم إذن العودة إلى المعنَى الأصلي . فعلاً ، لو درسنا أصول الكلمات لوجدنا أنَّ هناك ثلاث كلمات لاتينية تُحدِّد معنَى «رَليخِيونْ» religión و توضِّح العلاقة بين «الأفكار» و «المعتقدات» .

الكلمة الأولى هي : «رَليگَرَ» relígere ، و معناها : أنْ يكون المرء أو الشيء متَّحداً أو موصولاً بشيء ما أو بشخص ما .

وهذه هي الصفة الأولى للإنسان ، فعندما نولد نرتبط في الحال بالعالَم الفكري لوالدينا و محيطنا و ثقافتنا ؛ و عندما يولد شخص ما في كنف عائلة دمشقية مسلمة فسيظل لسنوات مرتبطاً بالإسلام كما يُفهم و يعاش في هذه المدينة ، و كذا الحال مع سلسلة من الحوادث الثقافية الخاصة بالْمُجتمع الدمشقي .

و هذا هو ما جرى لــ**إبراهيم** و **موسى** و **محمَّد** – عليهم السلام – فقد كان كلٌّ منهم وليد عصره و مجتمعه ، و تقبَّل كلٌّ منهم قِيَمه على أنها الوحيدة الممكنة .

و لكن نصل الآن إلى الكلمة الثانية : «رَلَگَرَ» relégere ، والتي تعني : إعادة القراءة أو القراءة من جديد . فبعد سلسلة من التجارب التي نَمرُّ بها على مدى شبابنا يتغلغل الشك إلى قلوبنا ، ويبدأ ما كان «الحقيقة» حتى ذلك الحين بالانْهيار أو – على الأقل – بملء نفوسنا بالحيرة و الاضطراب . إنها عملية لا يُمكن تَجنُّبها ، يَختفي فيها كل ما كان يصنع عالَمي و ينقلب في نظري إلى شيء مريب . **إبراهيم** – عليه السلام – لا يستطيع النوم ، إنه مرتاب : يَخرج من داره ليتأمل السماء المليئة بالنجوم ... يتساءل و يداخل نفسه اليأس و لا يَجد جواباً إلى أنْ يبلغه النور الإلَهي فيفهم حينها

أنَّ فكر قومه الوثنيِّيْن على خطأ ، فهو لا يستطيع حينها أنْ يكون «رَليگادو» religado أيْ : مرتبطاً أو متَّحداً بتلك «الأفكار الأساسية» .

و لكن : هل كانتْ تلك هي «الأفكار الأساسية» حقًّا لأهل أور ؟ كَلاَّ على الإطلاق ! إنما كانتْ «خواطر» حلَّتْ شيئاً فشيئاً مَحل «الأفكار الأساسية» التي استقرَّتْ عليها نظرتُهم إلى الوجود ، إذن ما الذي حدث ؟ ما حدث هو أنَّ الثقافة حلَّتْ مَحل «الفطرة»، و هو نفسه ما جرى للناس الذي خرجوا من مصر مع **موسى** : لقد اتَّصلوا على مدى رحلتهم بأقوام آخرين ، بأناس من عَبَدة الأوثان و بأقوام ذوي ثقافات مِمن أخذوا منهم ، أو بالأحرى استرْوَحُوا رِيْحها الذي راح يتغلغل في القلوب مستأصلاً «المعتقدات» و «الأفكار الأساسية» . و حدث لأهل أور أنْ بلغَتْهم رياح ثقافات خَلقتْ مع مرور الوقت «أفكاراً أساسيةً» مزيفةً . لكنَّ **إبراهيم** – عليه السلام – لَم يكن مستعدًّا للتراجع أو الْخُضوع أو مواصلة الارتباط بـــ«أفكار» و «خواطر» تتعارض و«الفطرةَ» .

و هنا نبلغ الكلمة الثالثة : «رَليگِيو» religio ، التي تقف على النقيض من كلمة «نَگْليگِيو» negligio التي تعنِي : التقصير

والغفلة و الكسل و الْخُمود . «رَليگِيو» religio تعنِي حرفيًّا : الاختيار المعتنِي و المدقّق . حقًّا ، فهذا هو وقت الاختيار ، فـــ**إبراهيم** – عليه السلام – لا يُمكنه الاستمرار في خداع نفسه بعد أنْ بلغه النور الإلَهي و أظهر له الفكرة الأساسية الرئيسة وهي : أن لا إله إلا الله و أن كل ما هو موجود هو من خلق الله .

فماذا عساه يفعل الآن ؟ عليه أنْ يَختار بين متابعة مهزلة قومه أو الابتعاد عنهم و إعادة فكرة التوحيد الأساسية إلى فكره . اختار **إبراهيم** – عليه السلام – فكرة التوحيد و ابتعد و هاجر ، ولكن ليس قبل أنْ يُحاول أنْ يفهم قومه خطأ التقدير الذي وقعوا فيه ؛ لكنَّ هؤلاء لَم يعيروه أذناً صاغيةً ، فلا جدل عندهم في الثقافة التِي يعيشون على حِمايتها ، و إنهم ليفضِّلون طريقة حياتِهم التي أملتها ثقافتهم و يقدِّمونَها على الحقيقة .

الخريطة الآن كاملة أمامنا : نَحن نولد و «الفطرة» هي الْمَجال الوحيد لمعتقداتنا و أفكارنا ؛ ثُمَّ يبدأ زخم الثقافة بالتغلغل فينا بعد وقت قصير ، منذ الأيام الأولى تقريباً ، ليكوِّن فينا «الأفكار الأساسية» أو «المعتقدات الجديدة» ؛ و بعد وقت تبدأ تلك «الفطرة» – و هي توشك على الاختناق – بإلقاء ومضات إلى

الخارج مُحدثةً فينا الشك و البلبلة و الحيرة ؛ نعاود القراءة ، أيْ أننا نتأمل و نبحث و نُحلِّل و نَجد أنَّ جزءاً من أفكارنا الأساسية هو نتاج الثقافة لا «الفطرة» ، مع ذلك - و كما شرحه لنا الإمام **الغزالي** - رحمه الله - فهذا التأمل و التحليل لن يتمكنا من بلوغ الحقيقة و الوضوح ، فالحقيقة و الوضوح يصلان مع النور الإلَهي الذي ينير «الفطرة» و يعرِّي الأفكار الثقافية التي ظننا أنها «أفكار أساسية» .

و في هذه اللحظة تَبْرز المعضلة ، فإنْ برئتُ من هذه الثقافة وغسلتُ قلبِي من كل تلك «الأفكار الأساسية» التي اختلقتْها الثقافة فسأظل وحيداً و سيتوجب عليَّ أنَ أتَخلّى عن كل ما ألفته ، و إنْ اخترتُ - في المقابل - أنْ أستمرَّ و أقبل بكل ما ارتبطتُ به إلى الآن فسأحافظ على علاقاتِي الْحَسنة مع أهلي و ناسي ، و لكنَّ شقاء خداعي لنفسي سيرافقني طوال حياتِي .

فعلى كل واحد - إزاء هذه المعضلة - أنْ يَختار ما يُملي عليه قلبه ، شريطة أنْ يتعرف على الحقيقة . و عواقب هذا الْخِيار أو ذاك واضحة ، فإنْ اخترتُ الطريق الأول فسينظف التوحيد مَجال معتقداتِي من «الأفكار الأساسية» المزيفة و ستخضع خواطري هي

الأخرى إلى عملية ترشيح الفطرة لتطرح كل ما يناقضها و يتعارض معها .

و لِنضرب على ذلك مثلاً من حياتنا اليومية ، فلو كنتُ دمشقيًّا أو تركيًّا أو إسبانيًّا ، بِمعنَى : لو كان الْمَجال الذي توجد عليه «الأفكار الأساسية» مَحكوماً بالثقافة الدمشقية أو التركية أو الإسبانية ، فمِن الْمُحتمل جدًّا أنْ أكون عنصريًّا ، فالفكرة الأساسية التي يُمثِّلها انتسابِي إلى الْجِنس الأبيض و بأنَّ الجنس الأبيض متفوق على ما عداه ستجد مكانَها على هذا الْمَجال ؛ و لو حدث - بالمقابل - أننِي كنتُ مسلماً ، و كان مَجال معتقداتِي مَحكوماً بفكرة التوحيد و سنَّة الأنبياء فسيصبح من المستحيل عليَّ أنْ أكون عنصريًّا و ستدل خواطري هي الأخرى على هذه الاستحالة .

و عندما تقول لي ابنتِي إنَّ رجلاً أسود طلبها زوجةً له فسينصبُّ قلقي على معرفة إنْ كان ذلك الرجل الأسود مسلماً صالِحاً يَخاف الله ، لا على بياض بشرته أو صفرتِها ، و لا على سواده هو أو حُمرته ، فما تلك سوى معلومة إضافية و عرضية .

و لكن ، ماذا يَحدث عندما يكون الشخص مسلماً و لكنَّ مَجال معتقداته ليس كذلك ، بل هو مَجال تَحتلُّه تراكيب ثقافية

مسيطرة ؟ سيحدث تناقض بين «أفكاره الأساسية» و «خواطره» ، فهو مسلم ، لكنَّه محكوم بقِيَم ثقافية غير إسلامية .

إنْ عُدنا إلى مثال صديق زميلي فسنجد أنه بِحكم إسلامه لا يُمكن أنْ يكون عنصريًّا ، و بالتالي فإنه في دردشاته و أحاديثه يعبِّر عن مقته للعنصرية ، و لكن حين يتغير الوضع و لا يعود الأمر مُجرَّد حديث حول فنجان من الشاي تَجري فيه «الخواطر» بلا اعتراض من أحد و لا تَمحيص ، و تتحول إلى مشكلة حيوية و حالة تَمسُّ الوجود كله ، يرتدُّ هذا الشخص إلى «أفكاره الأساسية» غير الإسلامية و يعترض على زواج ابنته من رجل أسود !

هذا ما نلاحظه اليوم مِن حولنا ، فكل «خاطرة» تَحتاج إلى قاعدة من «الأفكار الأساسية» أو «المعتقدات» لكي يكون ثَمَّة تَماسك في الْخِطاب و في الحياة .

و على نفس الشاكلة يُمكن أنْ يكون الاعتقاد بالله مُجرَّد «خاطرة» و ليس «فكرةً أساسيةً» .

و لِكي يكون قولنا مفهوماً علينا أنْ نُحلِّل مفهومَيْن آخرين هُما : «الدين» و «الملة» ؛ أما «الدين» فإنه سلسلة من المعتقدات

الميتافيزيقية التي تستدعي مُمارسة العبادة . لكن هذا «الدين» يتطلّب مَجالاً مناسباً للتطوُّر و النموِّ اجتماعيًّا و فرديًّا ، أيْ : إنه يتطلب «الملة» لِيكون زَرْع «الدين» من خلالِها شيئاً طبيعيًّا و ليس فرضاً ثقافيًّا أو دينيًّا . و لكن ، كيف لنا أنْ نعرِّف كلمة «الملة» ؟

«الملة» هي : صيغة في الحياة و هي قِيَم الشخص الحقيقية ؛ و لكنَّنا نستطيع كذلك أنْ نعرِّفها على أنها : مَجال معيَّن يقوم عليه كل ما عداه . «الاعتقاد» و «الملة» يشكِّلان واقعَيْن لا يُمكن الفصل بينهما و ضروريَّيْن لِكي يتمكن «الدين» من الاستقرار بانسجام .

عندما يضطلع **إبراهيم** – عليه السلام – بفكرة التوحيد تتبدل حياته جذريًّا و تظهر «الملة» جديدةً قائمةً على تلك الفكرة الأساسية الرئيسية : إنْ لَم يكن مِن إله غير الله ، و إنْ وُجدتْ بعد هذه الحياة حياة أخرى نُحاسَب فيها على ما عملنا و ما اعتقدنا في الحياة الأولى فإنَّ طريقتِي في الحياة ستتكيَّف شيئاً فشيئاً مع ذلك الواقع الذي هو فكرتِي الأساسية ؛ و لكن ، لو أنَّ التوحيد «خاطرةٌ» أو مُجرَّد فكرة فإنَّ حياتِي ستتكيَّف مع «الأفكار

الأساسية» السائدة في الثقافة التي أنتمي إليها و سيكون الدين الذي أعتنقه مُجرَّد واحد من طقوس تلك الثقافة .

لَم يكن الاعتقاد بالله بالنسبة إلى **إبراهيم** – عليه السلام – مُجرَّد «خاطرة» ، بل «فكرة أساسية» ، و لذلك فعندما يطلب الله منه أنْ يذبح ولده **إسماعيل** – عليه السلام – فإنه لا يتردد لَحظة واحدة ، لأنَّ طاعة الخالق المطلقة في «ملة» **إبراهيم** – عليه السلام – هي «فكرة أساسية» . صحيح أنَّ **إبراهيم** – عليه السلام – لا يفهم السبب الموجِب لأمره بقتل ولده ، و هو المخلوق البريء الطيِّب ، و لكنَّ مِن الصحيح أيضاً أنَّ طاعة الخالق في ملَّته ليستْ مشروطةً بعلَّة أو بسبب ، لأنَّ «فكرةً أساسيةً» أخرى من أفكار **إبراهيم** – عليه السلام – تتمثل في أنَّ معرفة الله هي فوق الاستنباط العقلي البشري ، و لذلك فما يبدو لنا غير مفهوم و غير منطقي ليس هو كذلك بالنسبة إلى حكمة الخالق . و على أية حال فـــ**إبراهيم** – عليه السلام – يطيع و يرفع السكين لذبح ولده ، و في هذه اللحظة يأمره الله أنْ يكفَّ و أنْ يذبح عوضاً عن ولده كبشاً . و هنا يتكشف له معنَى ذلك الأمر الغريب : أراد الله أنْ يُجرِّب طاعة **إبراهيم** – عليه السلام – و أنْ يعطينا بذلك المثل لنا و للإنسانية

جَمعاء . و مَثَل **إبراهيم** – عليه السلام – هو مثل مَن وحَّد «معتقداته» مع «أفكاره» ، و «أفكاره الأساسية» مع «خواطره» .

لِنر الآن مثالاً آخر يردنا هذه المرة من سياق مختلف جدًّا ولكنَّه قد يكون أقرب إلينا :

نتحدث عن فيلم قصير لمخرج أندلسي (٧) شاب . الفيلم يروي قِصَّة رياضي متسلِّق يتسلق سفحاً جانبيًّا لِجبل متعامد يبلغ ارتفاعه ٨٠٠ متر تقريباً . و مع صعوده يتأكد من الحلقات التي يُمرِّر منها حبل الأمان . إنه صعود صعب ، و لقد هوى في أكثر من مرَّة ، لكنَّ حبل الأمان التقطه . و يعاود الْمُحاولة مرَّةً و أخرى إلى أنْ يَحلَّ الظلام ؛ لكنَّه لا يتراجع و يواصل التسلُّق .

المتسلق يرتدي قبَّعةً واقيةً تَحمل ضوءاً قويًّا يسمح له بالرؤية لأمتار قليلة من حوله . و يعاود السقوط – بسبب التعب ربُّما – وتسقط منه القبعة و الضوء الذي تَحمله . تَمسك به الْحِبال هذه المرة كذلك ؛ لكنَّ الظلام دامس ، و هو لا يرى شيئاً من حوله .

---

(٧) نسبةً إلى محافظة أندالوثِيَّا (Andalucía) في جنوب إسبانيا .

ويتقدم الليل و معه يأتِي برد قارس . و يتمتم بالقوة القليلة التي بقيتْ لديه :

- إلَهي ! إلَهي ! و يُجيبه صوت :

- أوَ تظن أننِي موجود ؟

- يردُّ المتسلّق : نعم !

- ماذا تريد منِّي ؟ فيردُّ المتسلق بيأس :

- أنقذني ! فيسأله الصوت :

- و هل تظن أننِي قادر على إنقاذك ؟

- نعم ! يرد عليه المتسلق مضيفاً : أنتَ وحدك القادر على إنقاذي ! و يُجيب الصوت :

- فاقطعِ الْحَبْل إذن ! فيطلق المتسلق صرخةَ ألَم و يأس :

- كلا ! الْحَبْل كلا !!

في صباح اليوم التالي كان المتسلق ما يزال معلّقاً بالْحَبْل ميِّتاً، فقد جَمَّده برد الليل و تدَّلتْ قدماه على مسافة أقل من متر من الأرض !

في هذا المثال المعبّر نرى كيف أنَّ الاعتقاد بالله لدى المتسلق هو مُجرَّد «فكرة» أو «خاطرة» ، أما اعتقاده فهو أنَّ لا وجود لله وأنَّ مواصلة الإمساك بالْحَبْل هو الشيء الوحيد الذي سينقذه .

لن يستطيع الإنسان تَجاهل هذه المعضلة و هذا الشك ، و لا بُدَّ له – آجلاً أم عاجلاً – من الاختيار بين أنْ يعيش «معتقداته» أو أنْ يعيش «خواطره» .

حضارة و بربرية

تشكّل «الكلمة» و «الخطاب» و «علم المعاني» اليوم إحدى أكبر وسائل السيطرة . يكفي أنْ نعطي شيئاً ما اسْماً لكي يبدأ بالتكوُّن و الصيرورة ؛ و يكفي – في المقابل – أنْ نتجاهل شيئاً وألا نسمِّيه لكي يختفي شيئاً فشيئاً من ذاكرتنا و يلفُّه النسيان .

إنَّ استعمال الكلمات و المعاني هو ما يسمح لأمم بعينها أنْ تُجزِّئ العالَم إلى مفاهيم من قَبيل : البلدان المتقدمة و البلدان النامية، أو : بلدان العالَم الثالث و بلدان العالم المتحضر ، من دون أنْ يفهم المرء إلى ما تشير إليه تلك المفاهيم .

هذا التقسيم ، الذي سنرى على مدى هذه الدراسة أنه تقسيم تعسُّفي ، هو ما سَمح للغرب – و منذ زمن الإغريق – أنْ يَمتلك قاعدةً فكريةً و مبَرِّراً للاستعمار الذي مارسه ، و أنْ يطوِّر مشروعه السياسي الكبير و القديْم المتمثل في العولَمة التي هي – في

نِهاية الأمر - صِبْغ العالَم بصبغتها و إزالة أدنَى لون قد يظهر في قوس قزح الآخرين .

لو تَخيَّلنا للحظة أنَّ الكلاب صاروا همُ المسؤولين عن تقرير أسلوب حياة بقية الحيوانات ، و هو أسلوب يجب أنْ يوافق - بطبيعة الحال - حياةَ الكلاب ، سنتنبَّه في الحال إلى أنَّ الأمور ستسوء بالنسبة إلى الغالبية العظمى من الحيوانات ؛ و ربَّما ستتلقَّى القطط - خصوم الكلاب الأقرب - أشدَّ الضرر ! و ستفصح الدعاية التي ستنطلق من كل ناحية و من كل وسائل الإعلام - بطريقة أو بأخرى - عن البربرية التي يعنيها اصطياد الفِئران أو العصافير ، و عن الجهل التامِّ الذي يعنيه أكل أشواك السمك في مقابل الطبق المتحضر و العلمي المؤلَّف من عظام فخذ البقرة أو لَحم القط اللذيذ !

و لن يجدي احتجاج القطط و قولها بأنَّ عِظَمَ حَجْمِ أَنْيَابِها وعدم توفُّرها على الطواحن يجعل من أكل عظام فخذ البقرة أمراً مستحيلاً و منافياً لتركيبة أسنانها . لن ينفعها قول ذلك لأنه سيكون بالذات ما ستحتجُّ به الكلاب للبرهنة على تدنِّي معدن القطط وعجزها عن أكل ما تأكله الكائنات المتحضرة ، و لينتهي بها الأمر

إلى أنْ تُصنَّف في مرتبة العبيد أو لتكوِّن جزءاً من طبَق الحيوانات المتطورة ! ستتصاعد تلك الدعاية لتمسَّ هذا الفريق و ذاك إلى أنْ تبدأ الطيور و الحيوانات الأخرى - زادتْ قوائمها على أربع أو قلَّتْ - بالإحساس بالخجل من صفتها و وضعها ، ثُمَّ لتشرع في عملية تحوُّل طويل و مؤلِم !

و لن يَجرُؤَ أسد و لا فيل على انتقاد الكلاب لإساءتها معاملةً إوَزَّة أو لإخضاع السرطانات إلى أعمال شاقّة أو لإبادتها العناكب ، بل سيبَرِّران سلوك الكلاب هذا بعدم امتلاك تلك الحشرات - من ذوات الأرجل الثمانية و الْمَجَسَّات - أو تلك الوحوش المُجنَّحة - من ذوات القائمتَين - صفة الحيوانية ، بل قد يقع الفيل نفسه في دائرة الشكِّ و يُتَّهم بعدم انتسابه لعالَم الحيوان بسبب خرطومه الغريب الذي يتعارض و مقاسات الكلب ! و ربَّما سيُرفَع شعار : الموت للمبالِغين ! في حملة دعائية لاحقة تقوم بِها الكلاب ، لا للقضاء على الفيلة و حسب ، بل و جَرَاد البحر والدُّبِّ آكل النمل و القنافذ كذلك .

و لن ينفع كذلك نَحيب تلك الحيوانات المسكينة البعيدة في شكلها و حجمها عن شكل الكلب و حجمه ، بل ستُقرُّ بدونيتها

وقبح صورتِها ، وستعترف بخطأ بُنيتها و نفسيتها ! و لن يَخطر ببالِها غير التِماس أنْ تُمنَح صفة مواطن من الدرجة الثانية أو الثالثة ، أو أنْ تُقبَل بصفة العبيد أو بصفة حيوانات حَمل ! فالْحَية ، على سبيل المثال – و هي شرطية الكلاب السرية – لن تحظى في مجتمع الكلاب بشيء من الاعتبار إلا بسبب وظيفتها تلك .

المشكلة هنا لا تكمن في الكلاب في حَدِّ ذاتِهم ، بل في التحديد الذي تفرضه على بقية الحيوانات . فلو تصوَّرنا أنَّ القطط هي التي استحوذتْ على السلطة و أنها هي التي تفرض نظام القِيَم الجديد ، لوجدنا أنَّ النتيجة لن تختلف كثيراً عن نظام الكلاب .

هذه الملاحظة تقودنا إلى أنَّ تقرير ما هو أعلى و ما هو أدنى، ما هو عُلوي و ما هو سفلي ، ما هو مرغوب و ما هو منفِّر ... لا يتحقق باعتماد أيِّ نموذج حيواني موجود ، لأنَّ أسلوب حياة ذلك الحيوان سيكون – على الأقل – غريباً بالنسبة إلى بقية الحيوانات إنْ لَم يكن مستحيل التقليد ؛ فكيف يكون في مقدورنا إذن أنْ نقرِّر نظاماً صحيحاً للقِيَم تَسير عليه كل الْمُجتمعات مِن دون أنْ يشعر أحدها بظلم أو بطغيان ؟

عند هذه النقطة نترك المشابَهة الحيوانية و نلتفتُ إلى البشر ، ذلك أنَّ الأمور في مَملكة الحيوانات تسير بانسجام مطلق و لا تَحتاج إلى عنصر غريب لِحل المشاكل فهي غير موجودة أصلاً ، إذْ لَم يحاول الأسد قطُّ أنْ يطيح بالكلاب ، و لَم يقاتل النَّسْرُ القططَ في يوم من الأيام لأنها قلَّدتْ نَمَط حياته .

أما في مملكة الإنسان فثَمَّة تعطُّشٌ دائم لإقامة نظام و ثقافة وقيم نِهائية ، ليس لها من وظيفة غير التستُّر على رغبة جامِحة في السيطرة . لكنَّ قصدنا لا يتمثل في تحليل هذه الرغبة ، بل مراجعة مفاهيم : «المتقدمة» و «النامية» ، «المتحضرة» و «الْهَمجية» ، لنطَّلع على حقيقتها و لنرى كيف يعرِّفونَها اليوم من منظور «البلدان الأقوى» ، و هي التي فرضتْها على بقية الشعوب كما فرضتْ الكلاب – في مثالنا المذكور – أسلوب حياتِها على بقية الحيوانات .

لا بُدَّ لنا في البداية مِن التمييز بين ثلاثة مفاهيم طالما أُسيء استعمالها ، نشير إلى : «الطبيعة البشرية» و «الثقافة» و «الفطرة» .

و سنبدأ بمفهوم «الفطرة» التي عرفناها في أكثر من مناسبة بأنها : القالِب الأصلي و الطبيعة الجوهرية ، إنها المادَّة التي خُلق منها الإنسان ، و الألياف التي يتكون منها ، و هي جوهره الحميم .

علينا الآن أنْ نفهم أنَّ تطوُّر هذه الفطرة وسط ظروف مناخية و جغرافية و غذائية و تاريْخية شديدة التنوُّع سيخلق بالضرورة أنْماطاً من السلوك الاجتماعي و الفردي متباينة في ما بينها إلى درجة أنَّ هذه الفطرة الوحيدة الواحدة ستنشر أمامنا مجتمعات شديدة التنافر . هذا التباين في العادات و التنظيم الاجتماعي و القِيَم و الطعام هو ما نُسمِّيه بـــ«الطبيعة» ، و هو : ما تكون عليه طبيعة الإنسان ؛ و ما هذه «الطبيعة» - فرديةً كانتْ أو جَماعيةً - سِوى محصلة التطوُّر الطبيعي للفطرة في ظل ظروف و شروط محدَّدة .

أما «الثقافة» فهي : تطوُّر مصطنع و خارجي يلتصق - كما القراد - بِجلد شعب من الشعوب أو بِجبلته فيقلبها و يزيِّفها بعد أنْ يدخل بدعوى أنه التعبير الحقيقي لطبيعة ذلك الشعب . و هكذا فإنْ كانتِ «الطبيعة» هي التطوُّر الطبيعي لشعب من الشعوب انطلاقاً من الفطرة فإنَّ الثقافة هي تزييف تلك الفطرة ، و هي بالتالي طبيعة مشوَّهة لطبع ذلك الشعب و تزييف لقِيَمه . و قد لاحَظنا في المشابَهة الحيوانية كيف أنَّ الثقافة حاصرة وجامعة ، فلن ترضى الكلاب بأدنى اختلاف - جسدي أو فكري - من طرف بقية

الحيوانات . الثقافة تزيل طبع الشعوب شيئاً فشيئاً و تغيِّرها وتدعيها، و لا شيء يمكنه النموُّ إلى جانب الثقافة غير الثقافة ذاتِها .

نحن نعي أنَّ من العبث المطالبة بتطوُّر شعب من الشعوب من خلال طبع مبنِي على الفطرة بنسبة ١٠٠ % و من دون ذَرَّة من الثقافة في أسلوب حياته ، فهذا النقاء مستحيل ، بل غير مستحب ، لأنَّ فطرة الإنسان تبعده عن الضعة قدر ما تبعده عن الكمال وِفْق توازن قِوى تسمح له أنْ يكون إنساناً كائناً بشريًّا و ليس حيواناً أو ملاكاً . و لكنَّ هذه الثقافة يمكن أنْ تطوِّر مظاهر سلبيةً داخل طبع شعب ما ، و مظاهر أخرى لا تضير طبع ذلك الشعب .

و لتمييز المظاهر السلبية و السامَّة من غيرها نحتاج إلى غربال الفطرة . و على هذا الأساس يكون كل ما يرشح من هذا الغربال مقبولاً أو – على الأقل – مسموحاً به ، بينما يجب إلقاء ما لا يرشح من الغربال إلى خانة ما لا ينفع أو خانة ما هو مؤذٍ . الرمل الناعم الذي رَشَح سيمثِّل طبع هذا الشعب ، و كل شيء فيه سيكون بالتالِي متَّفِقاً مع الفطرة البشرية ، يُمثِّل أعلى درجات الحضارة و التطوُّر .

كما نرى فإنَّ هذه المفاهيم الجديدة - ربَّما على الكثيرين من القُرَّاء - ستطرح نتائج مختلفة جدًّا عما ألفناه من غيرها .

لقد وجدتُ هذه الأفكار و غيرها تلحُّ على فكري ، فقرَّرتُ أنْ أكتب إلى **جاهول** ، محطِّ إعجابي و صديقي الملمِّ بالطبيعة البشرية و المفكِّر العميق الذي طالما وجدتُ عنده أجوبةً شافيةً على أسئلة ذهنِي المضطرب . مع ذلك فقد بدا هذه الْمَرَّة وكأنَّني أضرب في عظم قاس ، فقد ردَّ صديقي **جاهول** بأنَّ حل المسائل التي أطرحها لا يقدر عليه غير علم أستاذه **فِطْرونِيوسْ** الذي لا يَمرُّ ببلدته إلا لأيام قليلة للراحة . و بعثتْ تلك الكلماتُ فيَّ الاطمئنانَ ، فقد كنتُ سَمعتُ كثيراً عن ذلك العالِم الكبير ، و بدا لي مُهمًّا أنْ يَردَّ هو على هذيان أفكاري .

و انتهز **فِطْرونِيوسْ** و **جاهول** اعتدال ذلك الشتاء المتأخِّر للتجوُّل في الغابة المُحيطة بِمدينة «روحِيَّة» . و كان في مقدور **جاهول** حينئذٍ أنْ يطرح على أستاذه الأسئلة الكثيرة التي كنتُ أنا قد طرحتُها عليه ، و كان الأستاذ يردُّ عليها على أفضل ما يمكن . كان **جاهول** يقيِّد في كل ليلة حواراته المثمرة مع **فِطْرونِيوسْ** إلى أنْ جمع كُتيِّباً هو ما سنقدِّمه في ما يلي إلى قُرَّائنا الأعزاء :

فِطْرونِيوسْ : لا جواب سهلٌ عندي على السؤال الذي تطرحه عليَّ، لأنَّ الأمور مترابطة . ليستْ هناك وقائع منفصلة أو مستقلة ، و في كثير من الأحيان تكون هذه هي المشكلة بالنسبة إلى التفاهم ، فنحن نحلِّل حالات من دون ربطها بسياقها ، و هذا أمر غير ممكن .

جاهول : نعم ، أنتَ مُحقٌّ في ذلك ، و لكنِّي أعتقد أنَّ فكرة «البلدان المتقدمة» و «البلدان النامية» واضحة و لا تحتاج إلى تحليل كثير .

فِطْرونِيوسْ : أنتَ مخطئ ، ثَمَّة وقائع كثيرة متخفية داخل الخطاب الذي نسمعه عبر وسائل الإعلام أو نقرأه في الكتب المدرسية أو الجامعية . يقال ، على سبيل المثال : "إنَّ في الْمُجتمع المتقدم طبقة متوسطة واسعة بإزاء أقلية ثرية ، و أخرى غير محظوظة" ، لكنَّ هذه الطبقة الاجتماعية – التي نضفي عليها تَجاوزاً و تجميلاً تسمية : «الطبقة غير المحظوظة» – تُخفي بؤساً ، و البؤس شيء غير مقبول .

جاهول : حسناً ، و لكن هل ثَمَّة مجتمع يخلو من جيوب الفقر؟" .

فِطْرونيوسْ : بالطبع ، و لكن قبل أنْ أردَّ على سؤالك تحديداً لا بُدَّ لنا من مراجعة هذين المفهومَين اللذين طالما استعملناهما من دون تمييز ، على الرغم من أهما يدلان على حقيقتَين متباينتَين ، و أقصد هما : «العوز» و «الفقر» .

ليس «العوز» مشكلة اجتماعية ، بل أرى أها أمر لا يُمكن تَجنُّبه ، لأنَّ الكائن البشري لا يَمتلك دائماً القدرة على القيام بأعمال مجزية و لا على البدء بِمشاريع تِجارية تستدعي قدراً كبيراً من المبادرة . علينا كذلك أنْ نعوِّل على كل الأشخاص الذين يعانون من إعاقة تَمنعهم من ممارسة الأعمال التي لو تغيَّرتِ الحال لأدُّوها بسهولة و يسر .

هذه العوامل و غيرها توجد في كل مجتمع نسبةً صغيرةً أو كبيرةً من الناس المعوَزين ، أيْ : الناس الذين يُمكنهم تلبية احتياجاتِهم الأولية و حسب ، فلهم بيت يأويهم ، و ثياب تسترهم ، و وجبة طعام يومية واحدة على الأقل . و كما يستطيع الأعمى أنْ ينمِّي بصورة مدهشة حواسَّه الأخرى للتعويض عن عاهته ، فإنَّ المعوزين عادةً ما يكونون أناساً شرفاء و على خُلُق ، مِما يجعل بقية الناس

يشعرون تِجاههم بالتقدير ؛ كما أنَّ على الناس في الْمُجتمع المتحضر أنْ يتكفَّلوا بهؤلاء المعوزين كي لا يلحقهم الفقر .

في الإسلام - مثلاً - توجد الصدقات ، فضلاً عن الزكاة و زكاة الفطر ؛ و هذه الصدقات هي التي تحول دون أنْ يوجد أناس يعيشون من دون أنْ يضمنوا احتياجاتِهم الأولية .

أما «الفقر» فإنه يصيب الإنسان في كرامته ، فيقرِّبه من الوحشية و ينأى به عن ما يتَّصف به الكائن البشري . هكذا علينا أنْ نفهم الحديث الذي يقول فيه رسول الله ﷺ : "**كاد الفقر أنْ يكون كُفراً**" [1] . و خلوُّ بلد من البلدان من الفقر يقوم دليلاً على تفوُّقه اجتماعيًّا . قد يكون هناك طبقة اجتماعية وسطى كبيرة ، و لكن ما يشير حقًّا إلى الرقي والتقدُّم في بلد من البلدان هو انعدام الفقر فيه .

---

(1) أخرجه الإمام **البيهقي** عن **أنس بن مالك** ﷺ في *شعب الإيمان* : باب في الحث على ترك الغل و الحسد ، ج. ٥ ص. ٢٦٧ ، حديث ر. ٦٦١٢ ، و فيه : "(...) **و كاد الحسد أنْ يغلب القدر**" ؛ دار الكتب العلمية ١٤١٠ هـ بيروت .

عندما زرتُ الولايات المتحدة الأمريكية منذ ١٥ عاماً شعرتُ بالدهشة – و لا أقول بالسخط – لرؤية مئات من الأشخاص يفترشون الجرائد في مارْكَتْ سْتِريتْ (Market Street) [٢] و يشاطرون ناطحات السحاب العملاقة المكان ... و تنفيذيون (رجال الأعمال) – من رجال و نساء – متأنِّقون يحملون حقائبهم في طريقهم إلى دوائرهم ، يَمرُّون من أمام أولئك البائسين من دون أنْ يتكلَّفوا و لو عَناء النظر إليهم ، وربَّما لأنهم ألفوا هذه المناظر حتى ما عادتْ تسترعي انتباههم ! علمتُ في ما بعد أنَّ في الولايات المتحدة الأمريكة أكثر من ثلاثين مليون مشرَّد – حسب الأرقام الرسمية للحكومة – يَمضون نَهارهم و ليلهم في الشوارع أو تحت الجسور ، أيْ : ليس لديهم بيت !

الشيء نفسه يحدث في باريس و مدريد و لندن !

(٢) شارع من أهمِّ شوارع سانْفِرانْسيسْكو (San Francisco) في ولاية كاليفورْنيا (California) على المحيط الهادي ؛ هي مشهورة أيضاً بكثرة المتجارة بالمخدرات في الحدائق التي حولها .

جاهول : هذا صحيح ، فكل العالَم سمع بِمشكلة «المشردين» في الولايات المتحدة الأمريكة و في ما يُسمَّى عموماً بـــ«الغرب» ، و لكن : هل في مقدور هذه الظاهرة إبطال التطوُّر التكنولوجي الذي تشهده تلك البلدان ؟ .

فِطْرونِيوسْ : لنستخدم مثال العائلة ، لنفترض أنَّ أباً لعائلة مؤلَّفة من أربعة أولاد تمكَّن من أنْ يوصل ثلاثةً من أولاده إلى نيل الشهادة الجامعية في الطِبِّ و القانون و الهندسة على التوالي ؛ لا شكَّ أنَّ الجميع متَّفَقون على أنَّ هذا الأب قد نَجح مع أولاده ، و لكن علينا أنْ نتساءل عن مصير الولد الرابع ... ماذا حدث له ؟

الولد الرابع مسجون و ينتظر حكماً بالإعدام لارتكابه جريْمتَي الاغتصاب و القتل ! هل نتشبث بالقول بأنَّ تلك العائلة مثالية و بأنها نموذج في تربية الأولاد ؟

لنتصور الآن عائلةً أخرى مؤلَّفة كذلك من أربعة أولاد يعمل اثنان منهم كنَّاسَين بينما الاثنان الآخران هما عاملان في مصنع . الأولاد الأربعة متزوجون ، لكنَّهم يزورون والدَيهم يوميًّا بعد الانتهاء من عملهم للسؤال عمَّا

يَحتاجانه ، و هم ينتهزون كل مناسبة للتزاور و يتقاسَمون القليل الذي عندهم ، و هم في عيون الجميع شرفاء وخدومون ، فأب أيٍّ من العائلتَين تتمنَّى أنْ تكون ؟ أو بعبارة أخرى : ما هو أفضل بالنسبة إليكَ : النجاح أم النَّزاهة ؟ الغِنَى أم الإيفاء بالتزاماتنا تِجاه العائلة و تِجاه الجار؟ .

جاهول : أظن أنَّ عليَّ أنْ أقول بأنَّ الحالة الثانية هي الأفضل ، أيْ أنْ أكون أباً للعائلة الثانية ؛ و لكن هل تظنُّ حقًّا أنَّ هناك شيئاً كهذا ؟ لقد سقتَ حالةً مفترضةً للتدليل على أمر واقعي ، لا أرى أنَّ الطريقة صحيحة .

فِطْرونِيوسْ : أحسنتَ القول أيها الصديق العزيز ! و لكنِ لا تنس أنَّنا نتحدث عن مفاهيم أخلاقية ، فربَّما لا ينطبق أيٌّ من المثالَين على أية عائلة ، و لكنَّ النَّزاهة موجودة حقًّا ، وكذلك الطموح و الأنانية و الكرم .

لَم أبتغِ من وراء هذه الأمثلة إلا أنْ نتَّفق على معنَى القِيَم الأعلى و معنَى القيم الأكثر طلباً ؛ و لكنني أردتُ في الوقت نفسه أنْ تنتبه إلى أنَّ المرء يضطرُّ أحياناً إلى أنْ يَختار

شيئاً غير مرغوب ظاهريًّا للوصول إلى ما هو مثالي حقًّا . يتوجب علينا أحياناً أنْ نتخلّى عن منظورات اقتصادية واجتماعية تعتبر جيِّدة كيلا نسقط في السلوك المشكوك فيه و اللازم لبلوغها .

نعلم جميعاً أنَّ الكثير من الْمُحامين يتوجب عليهم أنْ يدافعوا عن مُجرِمين و أنْ يتستروا على غشٍّ مالِيٍّ للتمكُّن من الحصول على المال و الشهرة ، و لكن : أمِن الأفضل القيام بذلك أم الالتزام بِحياة تعتمد الأخلاق في أعلى مستوياتِها و إنْ اضطررنا بسبب ذلك أنْ نعيش حياةً فقيرةً وغير ذات بال من الناحية الاجتماعية ؟ .

جاهول : أفترض أنَّنِي يَجب أنْ أردد من جديد أنَّ الأفضل هو الْخِيار الثاني ، هو : سُموُّ الأخلاق و كل هذا ، و لكنَّ هذه المقارنة تتناسى التعقيد الموجود في الْمُجتمع ، فعندما نشير إلى بلد فنحن لا نتحدث عن أربعة أولاد ، بل عن ملايِيْن الأفراد المتباينِيْن في ما بينهم .

هناك عوامل يَجب مراعاتُها و أخذها في الْحُسبان ساعة قيادة مجتمع من الْمُجتمعات . و أحياناً يكون بَتْر

الساق أو الساقَيْن معاً ، و هو أمر مؤلِم ، أفضل من الموت بالغرغرينا (الآكلة) !" .

فِطْرونيوسْ : بالطبع يا صديقي ، فهناك عوامل كثيرة مؤثرة ساعة تنظيم مجتمع من الْمُجتمعات ، و لذلك سنواصل بَحثنا ؛ ولكن قد يكون من المناسب قبل ذلك أنْ نتَّفق على بعض النقاط .

نعلم أنَّ بعد **ميكيافيللي** (Maquiavelo) [٣] وُجدتْ صيغتان لفهم السياسة و الأخلاق عموماً :

---

(٣) **نيكولاسْ ميكيافيللي** (Nicolás Maquiavelo) رجل دولة إيطالي : وُلد في فِلُرَنْثيا (Florencia) عام ١٤٦٧ م . عُيِّن مستشاراً في مجلس السِّكْنوريا (Consejo de Signoría : هي عبارة عن جمهورية بنظام خاص في إيطاليا ، لأنه آنذاك كان كل مدينة كبيرة فيها بمثابة جمهورية مستقلة) في فِلَرَنْثيا ، و في عام ١٤٩٨ م عُيِّن أمين سر الدولة للأمانة الثانية للدولة (كانتْ جمهورية فِلُرَنْثيا مألَّفةً من عشر أمانات ، كل واحدة منها مختصة بشأن من شؤون الدولة) التي كانتْ مسؤولةً عن العلاقات الخارجية و الحربية . دام في هذا المنصب ١٥ عاماً ، أثناءها كُلِّف برئاسة ٢٣ بعثة دبلوماسية إلى مختلف دول أوربا . في عام ١٥١٢ م سقطتْ جمهورية فِلُرَنْثيا و رجعتْ إلى السلطة عائلةُ المديثيِّين (Médicis) الذين اتَّهموا **ميكيافيللي** بالخيانة فعزلوه عن منصبه ثُمَّ سُجن و عُذِّب ، و بعد فترة أُبعد عن فِلُرَنْثيا ؛ و لكن البابا **ليأونْ العاشر** (León X) منحه العفو فتمكَّن من الرجوع إلى فِلُرَنْثيا . هناك انفرد لتأليف أعماله حول نظرياته في الدولة و الحرب . في عام ١٥٢٠ م كلَّف الكردينال =

١ - الصيغة التي تدافع عن مقولة : الغاية تبرِّر الوسيلة، و هي مقولة **ميكيافيللي** .

٢ - الصيغة التي تذهب إلى أنَّ الغاية لا تبرِّر الوسيلة ، و بالتالي لا يجوز اللجوء إلى وسائل ممنوعة أو مؤذية لبلوغ شيء جيِّد أو مرغوب نظريًّا .

أقول : هذا لأنَّ حديثكَ عن البَتْر بدا لي مريباً جدًّا ، فالحياة أولاً ، و لكن ليس بأيِّ ثَمن ، فإنْ كان ثَمن الحياة هو السقوط في الذلة فالموت خير !

و عندما نختار طريقاً ففي أغلب الأحيان نكون أمام خيارَين :

١ - طريق وسطي يؤدِّي إلى البقاء على قيد الحياة .

٢ - طريق عُلوي ، و هو الذي تتبنَّاه النفوس الكبيرة .

= **خوليو دي مديثس** (Julio de Médicis) **ميكيافيللي** بعدة مهمات ، و لَمَّا أصبح بابا - باسم **كِلَمَنْتَ السابع** (Clemente VII) عام ١٥٢٣ م - عَيَّنه مراقب عام للاستحكام عام ١٥٢٦ م . توفي عام ١٥٢٧ م بعد أنْ كان قد عُزل عن منصبه بسبب سقوط عائلة المديثيِّين مرةً ثانيةً في فِلُرَنْثيا .

سأجد صعوبةً كبيرةً في مواصلة هذا الْحِوار إنْ لَم نتَّفق على أنَّ الغاية و الوسائل يجب أنْ تكون مقبولةً أخلاقيًّا" .

جاهول : "أنا متَّفِق معكَ ، و لكنِّي لا أرى علاقةً بين المبدأ القائل بأنَّ الغاية لا تبَرِّر الوسيلة و مثال العائلتَين الذي سقتَه من قبل" .

فِطْرونِيوسْ : "بالتأكيد هناك علاقة كبيرة ، فمجتمعات اليوم تقوم على المبدأ المعاكس ، أيْ المبدأ القائل بأنَّ الغاية أحياناً – على الأقل – تبَرِّر الوسيلة ، و بالتالي فخير لي أنْ أبلغ مكانةً اقتصاديةً و اجتماعيةً مرموقةً و إنْ اضطررتُ إلى اللجوء إلى وسائل مريبة ، مِن أنْ أجد نفسي في حالة «عوز» و من دون مكانة اجتماعية مرموقة بسبب انتهاجي سبلاً شريفةً وواضحةً .

و هذا هو ما يَحدث على مستوى البلدان ، فكثير من البلدان توافق على شروط تتعارض و كرامتها من أجل الحصول على ظروف اقتصادية مناسبة أو على قدر من المكانة الدولية ؛ و لكن تصرُّفاً كهذا لا يُمكن أنْ يصدر عن

شعب يدَّعي الحضارة و التقدم ، بل عن شعب يتطلَّع وحسب إلى البقاء على قيد الحياة ، بل إلى بقاء حُكَّامه في السلطة . و نحن لا نستطيع الحديث عن الحضارة و التقدم في بلد من البلدان إلا حينما لا تكون كرامة شعبه و شرفه موضوع مساومة .

جاهول : إنكَ هكذا تُخرِج جميع البلدان من خانة الحضارة والتقدم، إذْ لا يوجد – بِحسب علمي – بلد لَم يبع نفسه من أجل طبق من العدس .

فِطْرونِيوسْ : أحسنتَ القول يا صديقي العزيز ! و لذلك فنحن نعيش اليوم «البربرية المطلقة الكبرى» . و لكنَّ تحليلنا لا يحاول صنع قائمة بالبلدان المتقدمة و البلدان النامية ، بل خَلْق نوع من القاعدة التي تسمح لنا – إذا ما طبَّقناها على تاريخ أية أُمَّة – أنْ نرى إنْ كان حَدَث تطوُّر و حضارة بِحقٍّ هناك أم كانتْ هناك بربرية متسترة بالتكنولوجيا و الديماغوجية" .

جاهول : لنستمرَّ حتى إيْجاد تلك القاعدة فنحن في أمسِّ الحاجة إليها ، فقد ألفنا الاستعمال غير الصحيح للمفاهيم . قلْ لي صديقي العزيز : ما هي الثُّنائية التالية ؟ .

فِطْرونِيوسْ : لا أعتقد أنَّ الترتيب مُهِمٌّ ، و لكن يَخطر على بالي مفهومان أساسيان طالما عُدَّا مترادفَيْن ، أشير إلى ثنائية : «العلم» و «التكنولوجيا» . و كما ترى فإنها مادة يصعب استخدامها ، فقد استُخدمتْ هاتان المفردتان لتعريف حقائق غريبة عنهما أو قليلة الاتصال بهما .

معلومتِي الأولى تفيد بأنّ «علم» و «تكنولوجيا» تشيران إلى شيئَين مختلفَين جذريًّا ، بل يُمكن أنْ يقال متضادَّين ، فـ«العلم» هو : تطوُّر الإمكانيات البشرية تطوراً طبيعيًّا بِهدف تزويد الإنسان بكل ما هو ضروري لِجعل حياته على الأرض ممكنة ، بل و ممتعة ، و لكن من دون أذى أو إفساد للطبيعة و للإنسان .

جاهول : أنا متَّفِق معكَ إلى الآن ، و لكن : أليس هذا هو ما تبحث عنه «التكنولوجيا» ؟ .

فِطْرونِيوسْ : "يؤسفنِي – يا صديقي العزيز – أنْ أردَّ على سؤالكَ بالنفي القاطع ، فـ«التكنولوجيا» كانتْ – قبل كل شيء – نتيجةً لِخطأ .

جاهول : صدِّقني ، إنها أول مرة أسمع فيها بِهذا التعريف لـــ«التكنولوجيا» ! .

فِطْرونِيوسْ : أصدِّقكَ و لا أستغرب ذلك بالذات ، لأنَّنا اعتدنا عدم التمييز بينها و بين «العلم» ، و لكن صبركَ عليَّ ، فسأوضِّح لكَ الفرق و التعريف بسرعة .

لنأخذ مثال البناء : لدينا بيت عربي صُمِّم بطريقة علمية ، فقد تَمَّ اختيار مواد البناء و التصميم بطريقة علمية حقًّا : أسواره التي يبلغ سَمْكها متراً و عشرة سنتمترات أو متراً و عشرين سنتمتراً بُنيتْ بالطوب و الْخَشب على قاعدة من الْحَجر ؛ و سقوفه التي ترتفع بين ٤ أو ٥ أمتار تشيع الْهَواء النقي في جميع الغرف صيفاً ، بينما لا تجعلنا نحتاج إلى التدفئة المركزية في فصل الشتاء ؛ أما بناؤه حول فناء دائري فيسمح للنوافذ أنْ تكون داخليةً ، بينما يحاط البيت من خارجه بسور عال يشكِّل بنفسه الْجُدْران الداخلية للبيت . هذا البناء يعزلنا كذلك عن الضوضاء و يَمنحنا خصوصيةً مطلقةً تقريباً ، بل إنَّ الفناء الوسطي المفتوح يتعرض لأشعة الشمس المفيدة و للهواء النقي مِما يُمكِّن الأولاد من اللعب

فيه بعيداً عن أيِّ خطر ، و من التمتع بالضوء و الشمس والهواء . و لا بُدَّ من وجود نافورة تبَرِّد نسمات الصيف ومنطقة نباتية تساعد هي الأخرى على تلطيف جو البيت . و يُمكن – إنْ استدعى الأمر ذلك – بناء طابق ثان أو استغلال ارتفاع الغرف لبناء عِلِّـيَّة تصلح أنْ تكون غرفةَ نوم أو مكتبة أو منطقة للترويح ... الخ .

و هكذا نرى أنَّنا ببناء البيت بناءً علميًّا نتخلص من مشكلة البَرد و الْحَر ، و في الوقت نفسه نوجد علاقةً صحيةً مع الوسط البيئي و مع المكان ؛ و لكن : ماذا سيحدث لو أنَّا أخطأنا في اختيار الموادِّ و في إعداد تصميم البيت ؟

يكفي أنْ نتأمل البنايات الجديدة المشيَّدة من الإسْمنت و البلوكات ، فحرُّ الصيف فيها لا يطاق ، فإذا كان اللبن يَمتص الْحَرارة و البُرودة ، فإنَّ الإسْمنت بِخزنهما أثناء النهار و تَحريرهما وقت المساء و الليل محدثاً تأثير الساونا أو حَمَّام البخار . و إزاء تلك الحالة الخانقة يلزم اللجوء إلى مكيِّف الْهَواء ، أيْ إلى «التكنولوجيا» ، و هو – كما يعرف الجميع – شديد الضرر بالصحة ؛ كما تدخل في

صناعة الإسْمنت موادٌّ كيميائية تطلق – وقت الْحَر و المطر – عناصر سامَّة تضرٌّ كذلك بالصحة .

و ربَّما لَم نتكلم بعدُ عن العواقب الحقيقية والوخيمة لِهذا النوع من البناء .

نشير في المقام الأول إلى القضاء على علاقة الجيرة ، فالجيرة ترتبط بالحالة الأفقية ، لأنَّ جارِي هو مَن يسكن إلى الْجَنب منِّي أو مقابلي أو خلفي ، أما فوقي فتسكن عائلتِي وسطح بيتي ، و بيتي يبدأ في الأرض لينتهي في السماء . أما في الأسلوب العمودي الحديث فساكنو البناية الواحدة ما عادوا يتزاورون ، بل ما عادوا يتبادلون الكلام ، و صاروا يعيشون العزلة الضارة .

النتيجة الثانية هي : الانْخفاض الكبير في عدد الأولاد، فالشقة الصغيرة لا تشجِّع على كثرة الأولاد ، فلا مكان و لا وقت لدينا للخروج معهم في جولة أو في نزهة للتعرُّض إلى أشعة الشمس الكريْمة أو نسمة الْهَواء العليلة التي يستمتع بِها الأولاد الذين يسكنون البيوت العربية .

الإنسان شأنه شأن الحيوان المتوحش : لا يستطيع التكاثر إذا عاش في ظروف أسر أو توتُّر . و كما أنَّ الأسد الْمَحبوس في قفص في حديقة الحيوان لا يتكاثر بسبب سلوك يتَّصل بالدفاع الذاتي ، كذلك الإنسان الحضري الذي يعيش في هذه المجمعات السكنية المضحكة فإنه ما عاد ينجب أولاداً .

النتيجة الثالثة تتمثل في انتهاء العلاقات الاجتماعية ، فبسبب صِغَر مساحات الشُّقَق و الحياة الانفرادية التي يولِّدها هذا النوع من السكن ، فقد ترك الناس عادة التزاور وتحوَّلتْ العائلة الصغيرة المؤلَّفة من الأبوَين و الأولاد إلى البُنية الاجتماعية الوحيدة الممكنة .

فإنْ أخذنا الآن وسائل التسلية فسنرى أنَّ ارتكاب خطأ كبير سيحتاج الى «تكنولوجيا» تُخفِّف من وطأته .

جاهول : أنتَ مُحقٌّ في المثال الذي سقتَه ، لكنَّنِي لَم أفهم موضوع الخطأ الكبير في وسائل التسلية .

فِطْرونِيوسْ : أجبْنِي على السؤال التالي : كيف يَمضي الإنسان وقت فراغه بِحسب «الفطرة» ؟ .

جاهول : بالفطرة قد لا يَجد الإنسان وقتاً للفراغ ، و لكنِّي فهمتُ قصدكَ ، و أردُّ عليكَ بأنه قد يَمضي وقته في الدراسة أو في عيادة مريض أو في زيارة عائلته أو في استقبال صديق أو في عبادة خالقه أو في التعلُّم أو في السفر ... الخ ، فهل يردُّ هذا على تساؤلكَ ؟ .

فِطْرونِيوسْ : تَماماً ، و لكن : ماذا حدث عندما تغلغلتِ الثقافة في طبع شعب من الشعوب و أحلَّتْ طُرقاً تقوم على الانعزالية ولا تثير روح الأخوة و التعارف ، بل روح المتعة محل القِيَم التي تقوم عليها تلك الطريقة الفطرية في التسلية ؟

لقد انبرتِ «التكنولوجيا» لإنتاج وسائل الإعلام الجماهيرية كالراديو و التلفزيون و الفيديو و الإنترنيت والسينما ... و يتَّفق علماء الاجتماع و الأطباء و علماء النفس اليوم على الضرر الذي تلحقه وسائل الاتصال تلك بالْمُجتمع . لقد دمَّرتْ هذه الأجهزة التواصل بين العوائل ومنعتْنا من أنْ نُخصِّص جزءاً من وقتنا لعيادة المرضى ، وقطَّعتْ عرى الصداقة بين الجيران و الأصدقاء .

فـ«التكنولوجيا» مضرة إذن على الدوام بالإنسان وبِمحيطه ، و هي - كما أسلفتُ - وليدة الخطأ .

جاهول : ربَّما اتفقتُ معكَ في ما يَخصُّ المثال الذي ذكرتَه ، ولكن : ما قولكَ ، على سبيل المثال ، في الطائرة ؟ هل في مقدورنا فعلاً القول بأنَّ «التكنولوجيا» كلها أذى و مضرة؟ هل الطائرة مضرة ؟ ألسنا ننتفع الآن بواسطة النقل السريعة و الأمينة هذه ؟ .

فِطْرونيوسْ : اسْمحْ لي باستطراد بسيط قبل الردِّ على سؤالكَ . إنَّ واحدةً من أشدِّ المواقف سوءاً في مجتمعنا اليوم تتمثل في غياب التحليل ساعة إبداء الرأي حول حَدَثٍ أو حالة ما أو ساعة الحكم على فرد أو حقبة تاريخية . و ما معنى «تحليل»؟ يعني - قبل كل شيء - وضع المشكلة موضوع البحث في إطار علاقاتِها ؛ و قد قلنا من قبل أن لا وجود لظواهر معزولة أو مستقلة . فإنْ لَم نُحلِّل أوَّلِيَّات حدث من الأحداث و علاقاته ، فمِن الممكن أنْ نستحسن أمراً هو - على المدى البعيد - قاتل .

فبنظرة بسيطة و تفكير تأخذ في الْحُسبان الوظيفةَ المباشرة للطائرة ، و التي تتمثل في نقلي من مكان إلى آخر في وقت وجيز . لا أجد - بالطبع - أيَّ اعتراض للتأكيد على أنَّ الطائرة تُمثِّل واحداً من أكبر إنجازات الإنسانية ، و لكن إنْ رجعتُ إلى أصل الطيران و بداياته فإنَّ الصورة تبدأ باتِّخاذ منحى أكثر قتامةً .

بادئ ذي بدء فإنَّ مَن طار أولاً لَم يكن مِن الغربيِّيْن، فلدينا محاولات عديدة ناجحة جرتْ في الأندلس إبَّان العهد الأموي ، كمحاولة **العباس بن فرناس الرندي** (٨٨٧ م) و الذي نَجح في الطيران لمسافة جيِّدة عن طريق جهاز معقَّد و غريب صنعه من ريش النَّسْر . و حاول آخرون الطيران بقليل أو كثير من النجاح . و في إستانبول العثمانية جرتْ كذلك محاولات تَمكَّن **هَزَرْفَنْ أحْمَد چَلَبِي** [٤] من اجتياز

---

(٤) **هَزَرْفَنْ أحْمَد چَلَبِي** (Hezarfen Ahmed Çelebi) عالِم باحث : عاش في القرن السابع عشر في زمن حكم السلطان **مراد الرابع** (١٦٢٣ - ١٦٤٠ م) . و معنَى **هَزَرْفَنْ** : صاحب الفنون الألف . قبله حاول الطيَران تركي بزنطي اسْمه **سراج الدين** عام ١١٥٩ م ؛ و قبل **سراج الدين** حاول الطيَران تركي آخر اسْمه **جوهري** عام ١٠٠٢ م ، و لكن =

خليج إستانبول بأنْ قفز من برج غَلَطَة (Galata Külesi) في الطرف الشرقي للخليج و هبط على الأرض بسلام في الطرف الغربي له [٥] .

مع ذلك علينا أنْ نعتبِر جميع هذه المحاولات مجرَّد تجارب و ثَمرة طبيعية للفضول البشري ، لأنَّ العثمانيِّيْن اعتقدوا دائماً أنَّ الإنسان غير مؤهَّل للطيران بل للسير على الأرض ، و لَم يجدوا من المناسب الانشغال بصنع أجهزة تَحمل الناس في الْهَواء .

من ناحية أخرى فإنَّ المباني التي نَجدها في بعض مناطق أمريكا اللاتينية (الجنوبية) و بعض المنحوتات تدلُّنا على أنَّ تلك الشعوب كانتْ تعرف شيئاً عن الْمِلاحَة الجوَية، و لكنَّهم ربَّما قرَّروا التخلِّي عن تلك المحاولات بعد

= محاولته كانتْ فاشلةً : صنع جناحَيْن كبيرَيْن ربطهما على ذراعَيْه بالحبل و قفز من منـــارة جامعة نيسابور ، و لكن الجناحان لَم يَحملاه فسقط على الأرض بشدة و توفي .

(٥) هبط في حي أوسْكودار (Üsküdar) في ساحة دوغانْجِلَرْ (Doğanciler) . قطــع مسافة ٦ كلومتر في ٥ دقيقة بسرعة ٥١ كيلومتر في الساعة .

أنْ أدركوا أنَّ الإنسان ليس طائراً و لا برمائيًّا ، بل هو كائن برِّي و حسب .

ما أقصده بِهذا هو أنَّ «التكنولوجيا» - كما نعرفها اليوم - كان يمكن أنْ تظهر قبل هذا الوقت بكثير منذ بدء التاريخ ، و لكنَّ حياة الإنسان البدائي - الأقرب من حياتنا الحاضرة إلى «الفطرة» - حَملتْه على التخلِّي عن محاولة تطوير التجربة التي ما كانوا يرونَها مناسبةً للكائن البشري .

أما الإنسان الغربي - و بسبب ابتعاده الدائم عن «الفطرة» - فلم يَجد ما يَمنعه من صنع ما يجعله أغنَى وأقوى عسكريًّا من دون أنْ يهتمَّ بالعواقب الضارَّة و المدمِّرة التي قد تنشأ عن تلك الصناعات .

و بعد أنْ أوضحنا الأمر ننتقل إلى الطائرة لنحلِّلها من مرحلة صناعتها إلى مرحلة طيرانِها .

نبدأ بالموادِّ التي تُصنَع منها الطائرة فنجدها فريدةً ، فهي موادٌّ يجب أنْ تكون شديدة المقاومة للتغيرات الجوية : تنتقل في دقائق قليلة من ٦٠ درجة مئوية تَحت الصفر إلى ٤٥ درجة فوق الصفر ! يجب كذلك أنْ تكون خفيفةً جدًّا

و مقاومةً و مَرِنةً ، لأنَّ ذبذبة جناحيها يمكن أنْ تبلغ ٩٠ درجةً تقريباً ! و كل هذا يتطلب خليطاً معدنيًّا ليس من السهل الحصول عليه في أيِّ مكان ، و هنا نشير إلى الليثيوم و التيتانيوم على وجه الخصوص .

البلدان الأساسيان المنتجان لِهذين المعدنَيْن في العالَم هما : تشيلي و البَرازيل ، و هو ما قد لا يعرفه الكثير من الناس . و مما لا يعرفه الكثير من الناس كذلك أنَّ بناء الطائرات الحربية أو التجارية أدَّى إلى موت عشرات الآلاف من الأشخاص في مناجم هذين البلدَين ، لأنَّ استخراج المعدنَيْن شاقٌّ و خطر ، و الظروف التي يضطرُّ العمال إلى العيش فيها تقرب من العبودية ، مما يرفع نسبة الوفيات بينهم .

جاهول : لا أجد بُدًّا من مقاطعتكَ ، فلا علاقة لظروف العمل بالطائرة ، بل يتوجب على شركات استخراج المعادن أنْ تُحسِّن ظروف عمالِها ، فنحن لا نتكلم عن ذلك .

فِطْرونِيوسْ : يا صديقي العزيز ، أخشى أنَّنا نتكلم عن هذا الموضوع، فما يعوِّل عليه هو الواقع و ليس المشاريع أو ما

يجب أنْ تكون عليه الأشياء ، فالشركات العاملة في استخراج هذه المعادن تسعى إلى أنْ تكون العملية مربِحةً ، وعليه فالعمال هم مَن يتوجب عليهم دفع الثمن من صحتهم و من حياتِهم . ببساطة كان لِزاماً أنْ يكون هذا الأمر كافياً للتخلّي عن صناعة الطيران .

و لكن هناك المزيد ، فـ«الفطرة» لا تشير إلى الذهن و حسب ، بل إلى الجسم كذلك . و قد قلنا أكثر من مرة أن لا شيء معزولٌ و لا مستقلٌّ . لَم يُخلَق الإنسان ليتحرك بسرعة تقارب الألف كيلومتر في الساعة ، فمعدته و جهازه العصبِي و ضغط الدم عنده يضطرب ، وكذلك تَحسُّسه للواقع . و التقارير الطبية التي تشير إلى المخاطر التي يتعرض لَها الأشخاص المواظبون على السفر بالطائرة معروفة للجميع؛ بل إنَّ الطَّيَّارين أنفسهم و المضيِّفات لا يستطيعون السفر لساعات طويلة متواصلة ، و يحتاجون إلى نسبة متوازنة بين الطيران و الراحة .

جاهول : و ما هي السرعة القصوى التي يتوجب على الفرد أنْ يسافر بِها ؟ .

فِطْرونِيوسْ : السرعة المثالية يجب ألا تتجاوز ٦٠ أو ٧٠ كيلومتراً في الساعة . هذا هو هامش السرعة الذي لا يؤثِّر في الكائن البشري بدنيًّا و لا نفسيًّا .

جاهول : أيْ : سرعة حِصان يَجري أو سرعة سفينة أو درَّاجة هوائية .

فِطْرونِيوسْ : تقريباً ... ما يزال هناك أثر يشبه ما ذكرنا في ضرره أو يزيد عليه . السفر هو – قبل كل شيء – العثور على شيء ؛ و الرحَّالة كانوا على الدوام ناقِلِيْن لطِبَاع مختلفة ، فقد عملوا على أنْ تتعارف شعوب متباعدة و مختلفة في ما بينها ؛ و كانوا هم مَن حَملوا إلينا التوابل و العطور و الحرير و العادات و الأفكار مِن هنا و من هناك . و نحن نعرف مساحة الأرض بفضل الْخَرائط التي رسَمها الرحَّالة ، وكذلك جزءاً كبيراً من التاريخ و العلاجات الطِبِّية و فكر الشعوب القصية . و لكنَّ الرحَّالة ينقل على وجه الخصوص واقع العالَم ، و هو عكس ما تفعله وسائل الإعلام التي تزوِّدنا بفكرة مشوَّهة عما يحدث .

قلْ لي : ماذا في مقدور مسافر اليوم أنْ يشاهد إذا كان يطير على ارتفاع ٢٤٬٠٠٠ متراً و بسرعة ٩٠٠ كيلومتراً في الساعة ؟ إنه يخرج من مدريد الساعة العاشرة صباحاً ليصل إلى دمشق الساعة الثالثة عصراً ، و يا له من وقت قياسي ! فماذا رأى ، و مع من التقى ؟ لَم ير شيئاً ، ولَم يلتق أحداً . أليس هذا ضرباً من الْحَبْس ؟ أليس هو اعتداء على حرية الإنسان ؟ .

يقول الله تعالى في القرآن الكريم :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات] .

جاهول : أنا لا أتفق معكَ تماماً ، و لكنّي أعترف بأنكَ مُحقٌّ في بعض الجوانب ، فنحن نحيا حياةً سريعةً و لا وقت لدينا للتزاور و الكلام ، لا وقت لدينا لأنْ نحياها كما هي . ولكن قلنا بأنَّ الْمُجتمع شيء معقّد ، فهل لديكَ المزيد من الثنائيات الأخرى ؟ .

فِطْرونيوسْ : بالطبع ، و لكن قبل الانتهاء من هذا الفصل علينا استخراج النتائج المناسبة .

جاهول : و ما هي ؟ .

فِطْرونيوسْ : إنَّ التقدم الحقيقي و الحضارة الحقيقية تطرح السفينة والحيوانات كالْحِصان و الجمل ، و بعض الآليات كالدراجة الهوائية ، وسائلَ للنقل . الْهَواء و الماء يُمثّلان طاقةً طبيعيةً أكثر قوةً من البترول و من الطاقة النووية . في الأجواء المتوسطية – و القارّية كذلك – علينا أنْ نشيِّد بيوتاً عربيةً ، و أنْ نطوِّر «العلم» بدلاً من «التكنولوجيا» .

بقيتِ الكثير من المواضيع الأخرى : الطب مثلاً . الاقتراب العلمي من الطب يتمثل في علاج الإنسان كوحدة واحدة ، و ليس كأجزاء معزولة متلاصقة بشكل ما و من دون علاقة تربط بينها . و أيُّ انحراف أكبر من التخصُّص في الطب ؟! .

* يؤلِمني قلبي فأراجع الطبيب المختصُّ بالقلب ، ولكنَّ سبب وجعي و ألَمي يمكن أنْ يكون التهاباً في أضراسي . الكائن البشري هو كيان نفسي بدنِي لا يُمكن تَجزئته ؛ فإنْ

فهمناه على هذه الطريقة فسيسهل علينا العثور على أسباب الأمراض و علاجاتِها .

و هنا أيضاً نلمس الفرق بين «العلم» و«التكنولوجيا» ، فعندما نقسم الجسم الآدمي إلى أقسام ونفصله عن العقل فلا بُدَّ أنْ يكون العلاج مبنيًّا على الإزالة؛ فإنْ آلَمكَ رأسكَ وصفوا لكَ الأسبِرين ليزيل ألَم الصداع مؤقّتاً ، و لكنَّ السؤال العلمي يجب أنْ ينصبَّ على سبب الألَم في الرأس . الطب العلمي يجب أنْ ينصرف إلى الأسباب و لا ينشغل بالنتائج و حسب . و لذلك فإنَّ الطب العلمي هو الطب الوِقائي في الأساس .

لنتخيل للحظة ما سيحدث لو أنَّ الناس تناولوا الطعام مرةً أو مرتَيْن في اليوم و من دون أنْ يبلغوا حَدَّ التُّخَمَة ؛ لو أنهم امتنعوا عن شرب الكحول و عن التدخين ؛ لو أنهم كفُّوا عن السهر ؛ لو أنهم لا يعيشون لكسب المال فيتخلصون – بالتالي – من التوتُّر العصبي ؛ لو لَم توجد السيارات و الدراجات النارية التي تفوق سرعتها سرعة الصوت ؛ لو لَم يبالغوا في تناول المشروبات المنبِّهة كالقهوة

و الشاي ، و لو أنهم تنقّلوا من مكان إلى آخر سيراً على الأقدام .

جاهول : ستغلق الكثير من المستشفيات أبوابَها بسبب تقلُّص عدد المرضى .

فِطْرونِيوسْ : بالطبع ، بِمجرَّد تغيير نَمَط الحياة و تكييفها على «الفطرة» سيعيش الكثير من الأشخاص الذين يعانون اليوم من الأمراض أصحاء بدنيًّا و عقليًّا ؛ و لو أنهم – فضلاً عن ذلك – كفُّوا عن تناول العقاقير الكيميائية عند مرضهم واكتفوا بالأعشاب و غيرها من العلاجات الطبيعية لشهدتْ نوعية حياتِهم تَحسُّناً ملحوظاً .

لكنَّ «التكنولوجيا» الطِّبِّية لَم تتطور لمكافحة المرض، بل لمكافحة الموت ! فإنسان اليوم لا يتقبل الموت ، و لذلك فهو يحتاج إلى «تكنولوجيا» تسمح له بـــ«البقاء» ، كيفما اتَّفق و على أية حال .

أما الاقتراب الطبِي من المرض مختلف جدًّا : أولاً لأنَّ الموت شيء مُحتَّم و لا يمكن التغلُّب عليه ؛ و ثانياً لأنَّ القبول بِهذا المبدأ يؤدِّي إلى عدم الخوف من الموت ، فنفضِّل

أنْ نَموت بِهدوء في البيت محفوفِيْن بالأشخاص الأعزاء علينا مِن أنْ نَموت مربوطِيْن إلى أنابيب ، معزولِيْن في وحدة العناية المركّزة بالمستشفى .

أرأيتَ يا **جاهول** كيف أنّ «التكنولوجيا» تغطّي على خطأ و على صيغة مخطئة من الحياة و من العادات ؟ .

جاهول : نعم . ربَّما ذهب الإنسان بعيداً ... و لكن : ما قولكَ في الكهرباء و الْهَاتف و الحاسوب ؟ أترى حقًّا أنها مضرة ؟ أليستْ هذه أشياء لا غنى للإنسان عنها ؟ .

فِطْرونيوسْ : هذا صحيح في الظاهر . «التكنولوجيا» تُكوِّن مجتمعات معينة قائمة على حاجة دائمة للمستحدثات التكنولوجية . و في هذا السياق يكتسي الحوار الذي دار بيْن **فرويد** (Freud) [٦] و إحدى مرضاه أهميةً بالغةً .

---

(٦) **سيگْمونْدْ فِرويْدْ** (Sigmund Freud) طبيب الأمراض العصبية و مؤسِّس علم التحليل النَّفساني : وُلد في فِرَيْبَرْگْ (Freiberg) - مُرابيا (Moravia) - النِّمْسا عام ١٨٥٦ م ، و لَمَّا كان عمره ثلاثة سنوات انتقلت عائلته إلى فينا . في عام ١٨٧٣ م دخل كلية الطب في جامعة فينا و تَخرَّج فيها عام ١٨٨١ م . في عام ١٨٨٢ م بدأ عمله كمساعد في المشفى العام في فينا ، و في عام ١٨٨٥ سافر إلى باريس لتكملة دراساته في جامعة سالْبِتْيأَرْ (Salpêtrière) . في عام ١٨٨٦ - بعد تكملة دراساته - رجع إلى فينا و فتح =

يبدو أنَّ **فرويد** شكا من أنَّ التطوُّر التكنولوجي دمَّر القِيَم الاجتماعية و الإنسانية الكبرى في الغرب ؛ فردَّتْ عليه المريضة قائلةً بأنَّ «التكنولوجيا» الجديدة هي مِن نِعَم الله ، إذْ أنها تسمح لها بالاتصال هاتفيًّا بولدها المقيم في الولايات المتحدة الأمريكية ، و لولا الْهَاتف لَظلاَّ من دون اتصال لشهور أو لسنوات . فردَّ عليها **فرويد** بأنه لولا الطائرات لما ابتعد عنها ولدها إلى الولايات المتحدة الأمريكية و لما احتاجتْ إلى الْهَاتف للاتصال به .

و مع أنَّ المثال لا يعدو عن كونه طرفةً فقد بدا لنا مُهمًّا ، لأنه يبيِّن لنا أنَّ التقنيات مترابطة ، و أنَّ كل واحدة منها تقود إلى الأخرى وصولاً – من بيْن أهداف أخرى – إلى بناء مجتمع «مربوط» من جميع النواحي .

جاهول : نعم ، أفهم ما تقصد ، فوجود الطائرات يقتضي الحاجة إلى الْهَاتف ثُمَّ إلى الفاكس وصولاً إلى الانترنيت . لا يُمكن

= عيادةً للأمراض النفسية . في عام ١٩٠٢ م أسَّس **فِرويْدْ** مع طلابه «جَمعية علماء التحليل النَّفساني في فينا» ، و في عام ١٩١٩ م أسَّس دار نشر . في عام ١٩٢٣ م أصيب بسرطان فَكِّي و أُجري له ٣٣ عملية . توفي عام ١٩٣٩ م في بريطانيا .

الأخذ بتقنية و طرح الأخرى ، بل يجب أنْ يؤخذ بِها كاملةً .

فِطْرونِيوسْ : فعلاً ، أنا ما كنتُ لأشرح المسألة أفضل مما شرحتَها أنتَ ، و لكن ما زال هناك المزيد . لقد تكلمتَ عن الكهرباء و عن الْهَاتف بوصفها أشياء لا غنَى للإنسان عنها، و هذا هو ما يشعر به أغلب الناس ، و لكن قلْ لي : إنْ أردنا الاستمتاع بالأدب العالَمي و بالفن و العلم والفلسفة ... الخ ، فإلى أيٍّ قرن علينا أنْ نعود للبحث عن الكتب التي توضِّح لنا كل ذلك ؟ .

جاهول : لا بُدَّ لنا أنْ نعود إلى العصور القديْمة في الكثير من الحالات .

فِطْرونِيوسْ : "فعلاً ، و أحياناً إلى عصور سحيقة . هكذا يكون السؤال الذي أودُّ طرحه عليك قد تمت الإجابة عليه تقريباً : فهل كان هناك كهرباء و هاتف و فاكس و حاسوب حينما كتب **أرسطو** (٧) و **أفلاطون** (٨) و **سُقْراط** (٩) و **أبقرط**

---

(٧) **أرسطو** (Aristoteles) فيلسوف يوناني : وُلد في أَسْتاخيرا (Estagira) – مقدونيا (Macedonia) عام ٣٨٥/٤ ق م . في عام ٣٦٧/٦ ق م – لَمَّا بلغ السابعة عشر مــن =

= عمره – سافر إلى آتينا (Atenas) و دخل مَجمع **أفلاطون** العلمي للدراسة فيه ؛ كان عمر **أفلاطون** آنذاك ٥٠ عاماً تقريباً ، و يبدو أنَّ **أرسطو** كان من أحسن طلابه ، كان **أفلاطون** يناديه : القارئ . في عام ٣٤٧ ق م – و بعد وفاة أستاذه **أفلاطون** – سافر مع زميلَيْه **خنوكراتس** (Jenócrates) و **تأوفرستو** (Teofrasto) إلى آسُّ (Asso) – أأُليدا (Eólida) حيث أصبح مستشاراً سياسياً و صديقاً مقرَّباً للملك الظالِم **أرمنأس الآتَرْنـائي** (Hermias de Atarnea) و زوجاً لبنت عمِّه . هناك أسَّس مدرسةً علميةً متخصِّصةً بالبحوث البيولوجية ، و بعد ثلاث سنوات انتقل إلى ميتيلَنَ دي لَسْبُسْ (Mytilene de Lesbos) حيث درَّس حتى عام ٣٤٣/٢ ق م . في هذه السنة نفسها دعاه الملك **فيليبُ الْماقَدونِي** (Filipo de Macedonia) ليكون مؤدِّباً لولده الوارث **آلَخَنْدِرو** (Alejandro) . و بعد وفاة **فيليبُ** (Filipo) عام ٣٣٥/٤ ق م و مجيء ابنه **آلَخَنْدِرو** إلى السلطة رجع **أرسطو** إلى آتينا حيث أسَّس معهده الخاص المسمى : الليثأو (El Liceo) أو : پَريپاتُسْ (Perípatos) ، و بدأ بالتدريس فيه . في عام ٣٢٣ ق م توفي **آلَخَنْدِرو** و مع وفاته انقلب الآتينيُّون على الْمقَدونيِّيْن و هدَّدوه بالقتل بسبب قربه – سابقاً – من السلطة الْمقدونية، فهرب إلى كالثيسْ دي أأوبَأ (Calcis de Eubea) – مسقط رأس أمه – حيث مات فيه عام ٣٢٢ ق م بسبب تسمُّم في المعدة .

(٨) **أفلاطون** (Platón) فيلسوف يوناني : وُلد في آتينا (Atenas) عام ٤٢٧ ق م تقريباً . حصل على التعليم الرياضي (البدني) و العلمي التقليدي الذي كان يتلقّاه الشباب الآتينيون آنذاك . في عام ٤٠٧ ق م تعرَّف على أستاذه **سقراط** (Sócrates) و لزمه ٨ سنوات ، كان عمر أستاذه ٦٣ سنةً . بعد أنْ أُعدم أستاذه في عام ٣٩٩ ق م هرب هو وبعض زملائه إلى مَگارا (Mégara) و اعتصموا في مدرسة سَمحتْ لَهم بالبقاء فيها ، وبعد ثلاث سنوات من الدراسة في تلك المدرسة سافر إلى مصر و مِن ثُمَّ إلى إيطاليا للأخذ عن أساتذتِها . رجع إلى آتينا عام ٣٨٨ ق م ، و مِن آتينا اتَّجه نحو جزيرة صقيلية (Sicilia) .=

(Epicuro) [١٠] و الإمام **مالك** [١١] و الإمام **القرطبي** [١٢] و **ابن خلدون** [١٣] **پيتاگوراسْ** (Pitágoras) [١٤]

= هناك تعرّف على ديأنْ (Dion) أخو ماكها **ديأنيسيو الأول** (Dionisio I) ؛ هذا المالك أجبر **أفلاطون** على ركوب سفينة إسْپارْتانية ، و بسبب الجو السيئ اضطرتِ السفينة للتوقُّف في جزيرة أگينا (Egina) حيث تَمَّ اعتقاله و بيعه كعبد ؛ و لِحسن حظه واحد من زملائه اكتشفه و دفع فديته ، و هكذا تَمكّن **أفلاطون** من الرجوع إلى آثينا عام ٣٨٧ ق م . بعد رجوعه اشترى صالةً قديْمةً كانتْ تُستعمل للرياضة و حديقةً و أسَّس أول مدرسة ذات طابع جامعي اسْمها : الأكاديْميا . بعد وفاة ذلك الملك في عام ٣٦٧ ق م دعى ابنُه **ديأنيسيو الثاني** (Dionisio II) **أفلاطون** و طلب منه أنْ يكون مستشاراً سياسيًّا له ، و لكن بعد فترة طرده و اضطرَّ إلى أنْ يرجع إلى آثينا حيث بقي ٦ سنوات يدرِّس في «الأكاديْميا» . و بعد فترة قصيرة طلبه الملك مرةً ثانيةً و قبل **أفلاطون** خدمته مرةً ثانيةً أيضاً ، و لكن هذه المرة أساء معاملته و اعتقله ، و بعد محاولات عديدة و صعوبة بالغه تَمكّن **أفلاطون** من الْهُروب والرجوع إلى آثينا حيث توفي فيها عام ٣٤٧ ق م تقريباً .

(٩) **سقراط** (Sócrates) فيلسوف يونانِي : وُلد في آثينا عام ٤٧٠ ق م و توفي فيها عام ٣٩٩ ق م . في أول الأمر عمل كَنَحَّات عند والده ثُمَّ اشتغل بالسياسة ثُمَّ أسَّس مدرسةً خاصةً له حيث اهتمَّ بتعليم الشباب . في آخر عمره اتُّهم من قبل الديْمقراطيِّيْن بإفساد أخلاق الشباب و أُعدم .

(١٠) **أبقرط** (Epicuro) فيلسوف يونانِي : وُلد في جزيرة سامُسْ (Samos) – اليونان عام ٣٤١ ق م . بدأ دراسة الفلسفة و هو في الرابعة عشر من عمره مع الفيلسوف الأفلاطونِي **پانْفيلُ** (Pánfilo) ، و بعد أربع سنوات من دراسته معه سافر إلى آثينا لأداء خدمته العسكرية . لَمَّا أراد أنْ يرجع إلى بلاده عَلِم أنَّ عائلته قد انتقلتْ إلى جزيرة =

= كُلُفُنْ (Colofón) فسافر إليها ، و هناك درس مع **ناوْسيفانَسْ** (Nausífanes) . وبعد ١٠ سنوات من أخذ الدروس منه انتقل إلى ميتيلَنَ (Mitilene) و مِن ثُــمَّ إلى لامْبْــساكُ (Lampsaco) و أسَّس هناك أول مدرستَيْه الفلسفية ، و لكن في عام ٣٠٦ ق م رجــع إلى آثينا تاركاً مدرسته و استقرَّ فيها نهائيًّا . هناك اشترى بيتاً مع حديقة و أسَّس مدرسته الثانيــة التي اشتهر باسم : الحديقة ، كانتْ تَمتاز من البقية بأن النساء و العبيد كاتْ تقبل . توفي عام ٢٧١ ق م .

(١١) (المدينة ٩٣ هــ = ٧١٢ م – المدينة ١٧٩ هــ = ٧٩٥ م) **مالك بن أنــس بــن مالك بن أبي عامر الأصبحي الحميري أبو عبد الله** إمام دار الْهجرة (...) .

مولده و وفاته بالمدينة ، حفظ القرآن في صغره و طلب العلم عن التابعين (...) . جضمع بين الفقه و الحديث و الاجتهاد بالرأي ، و تولَّى الإفتاء و التعليم بالمدينة .

(...) امتحن في أول العهد العباسي و طلبه والي المدينة **جعفر** عم **المنصور** فضربه بالسياط حتى انْخلعتْ كتفه (...) . و سأله **المنصور** أنْ يضع كتاباً شرعياً للناس ليحملهم على العمل به فصنف *الموطأ* في الحديث و الآثار ، و رفض أن يلزم الناس به .

(*الديباج المذهب* : ص. ١٧ ، *طبقات الحفاظ* : ص. ٨٩ ، *طبقات القراء* : ٣٥/١ ، *تــذكرة الحفاظ* : ٢٠٧/١ ، *تهذيب الأسماء* : ٧٥/٢ ، *طبقات المفسرين* : ٢٩٣/٢ ، *الخلاصة* : ٣/٣ ، *طبقات الفقهاء* : ص. ٦٧ ، *ترتيب المدارك* : ١٠٢/١ ، *الانتقاء* : ص. ٩، *شذرات الذهب* : ٢٨٩/١ ، *صفة الصفوة* : ١٧٧/٢ ، *الفتح المبين* : ١١٢/١ ، *الأعــلام* : ١٢٨/٦ ، *وفيــات الأعيان* : ٢٨٤/٣)

[*مرجع العلوم الإسلامية* للدكتور **محمد الزحيلي** : ص. ٣٩٧ ؛ دار المعرفة (دون تاريخ) دمشق]

(١٢) (؟ ؟ هـ = ؟ م - مصر ٦٧١ هـ = ١٢٧٣ م) **محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح أبو عبد الله الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي** (...) . كان فقيهاً و مفسِّراً ومُحدِّثاً (...) .

رحل إلى المشرق و استقرَّ بِمنية **بني خصيب** (في شِمال أسيوط بِمصر) و بقي فيها حتى توفي (...) .

(*الديباج المهذب* : ص. ٣١٧ ، *شجرة النور* : ص. ١٩٧ ، *الدليل الشافي* : ٥٨٦/٢ ، *الأعلام* : ٢١٧/٦)

[*مرجع العلوم الإسلامية* للدكتور **محمد الزحيلي** : ص. ١٨٢ ؛ دار المعرفة (دون تاريخ) دمشق]

(١٣) (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ = ١٣٣٢ - ١٤٠٦ م) **عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون أبو زيد ولي الدين الحضرمي الإشبيلي** (...) : الفيلسوف المؤرِّخ العالِم الاجتماعي (...) .

أصله من إشبيلة ، و مولده و منشأه بتونس ؛ رحل إلى فاس و غرناطة و تلمسان والأندلس ، و تولى أعمالاً (...) ؛ توجَّه إلى مصر فأكرمه سلطانُها **الظاهر برقوق** ، و ولي فيها قضاء المالكية (...) ، و توفي فجأة في القاهرة (...) .

(*الضوء اللامع* : ١٤٥/٤ ، *نيل الابتهاج* : ص. ١٧ ، *تعريف الخلف* : ٢١٣/٢ ، *جذوة الاقتباس* : ص. ٧ من الكراس ٣٣ ، المستشرق **ألفرد بل** (Alfred Bel) في دائرة المعارف الإسلامية : ١٥٢/١ ، *نفح الطيب* : ٤١٤/٤ ، *العبر* : ٣٧٩/٧ ، *آداب زيدان* : ٢١٠/٣ ، **محمد بن تاويت الطنجي** في مقدمة *التعريف* ***بابن خلدون*** ، Brock. ٢: ٣١٤, S. ٢: ٣٤٢)

[*الأعلام* لأستاذ **خير الدين الزركلي** : ج. ٣ ص. ٣٣٠ ؛ دار العلم للملايين ٢٠٠٢ م بيروت]

وثربانتس (Cervantes) [١٥] و نيوتُنْ (Newton) [١٦]
والنبي محمَّد ﷺ ؟ .

---

(١٤) بيتاكوراسْ (Pitágoras) عالِم رياضيات يوناني : وُلِد في جزيرة سامُسْ (Samos) – اليونان عام ٥٨٢ ق م و تربَّى على أيدي أكبَر فلاسفة زمانه . في عام ٥٣٠ ق م – لَمَّا أصبح عالِماً في الرياضيات ذو سُمعة – انتقل إلى كُرُتُنا (Crotona) في جنوبي إيطاليا و أسَّس فيها مدرسته المشهورة بتدريس الرياضيات ، و كان يدرِّس فيها الفلسفة و علم الفلك أيضاً . توفي في عام ٥٠٠ ق م .

(١٥) ميگلْ دي ثَرْبانْتَسْ ساأبَدْرا (Miguel de Cervantes Saavedra) كاتب و أديب و شاعر إسباني : وُلد في آلْكالا دي أنارَسْ (Alcala de Enares) – مدريد ٢٩ أيلول عام ١٥٤٧ م . لَمَّا كان عمره ٤ سنوات انتقل مع عائلته إلى باياذُليدْ (Valladolid) ، و في عام ١٥٦١ م رجعوا إلى مدريد . لا يُعرَف الكثير عن تعليمه و لكن خلال تواجده في مدريد أخذ دروس عن الأديب الكبير خووَانْ لُبَثْ دي أُيَسْ (Juan López de Hoyos) . و لَمَّا كان عمره ٢٠ عاماً تقريباً سافر إلى روما لِخدمة الكاردينال آكووَابيبا (Acquaviva) ؛ أثناء تواجده في إيطاليا تنقَّل بين مختلف أماكنها و من ثُمَّ التحق بالأسطول الإسباني الملكي عام ١٥٧١ م و حارب ضِدَّ العثمانيِّين في المعركة المشهورة لَپانْتُ (Lepanto) في البحر المتوسط و الذي فقد فيها ذراعه الأيسر بسبب ضربة بندقية . في ٢٦ أيلول عام ١٥٧٥ م – حين رجوعه إلى إسبانيا – اعتدَّى عليه القُرْصان و اعتقلوه و سجنوه في الجزائر . في ١٩ أيلوم عام ١٥٨٠ م دفع بعض الرُّهْبان فديته و أُطلق سراحه ، و بعد رجوعه إلى وطنه تزوَّج و عمره ٣٧ عاماً في أَسْكيبياسْ (Esquivias) – طليطلة (Toledo) ، و هناك بدأ بكتابة أعماله الأدبية . توفي في مدريد ٢٣ نيسان ١٦١٦ م .

جاهول : كلا بالطبع ! .

فِطْرونِيوسْ : أَلَم تكن تلك الأزمنة التي خلَّتْ من تلك الأجهزة التي «لا غنَى عنها» هي الأزمنة التي شهدتْ وضع الأُسس الأدبية و العلمية و الفنية و الروحية للإنسانية ؟ أكان للهاتف والكهرباء دخلٌ في أنْ بشَّر **بوذا** (Buda) و **لاوْ تسي** (Lao Tse)[17] بالبوذية و الطاوية ؟

---

(16) **إسحاق نِيوتُنْ** (Isaac Newton) عالِم في الفيزياء بريطانِي ، واضع قانون الجاذبية : وُلد ٢٥ كانون الأول ١٦٤٣ م في وُلْسنْدُرْبْ (Woolsthorpe) - لِينْكُلْنْشيرْ (Lincolnshire) – لندن . تَخرَّج في جامعة كامْبرِيجْ (Cambridge) عام ١٦٦٥ م ، وفي عام ١٦٦٩ م حصل على كرسي في الجامعة . في عام ١٦٦٨ صمَّم أول مِجْلاة النجوم العاكسة (تلسكوب) . في عام ١٦٨٩ م كبروفسور في الجامعة حصل على كرسي في البرلمان البريطانِي . في عام ١٦٩٦ م عُيِّن رئيس «بيت العملة» ، و في عام ١٧٠١ م عاد إلى تَمثيل جامعته في البرلمان . في عام ١٧٠٣ عُيِّن رئيس «الجمعية الملكية» (Royal Society) ، و في عام ١٧٠٥ م حصل على لقب «السيد» . توفي ٣١ آذار ١٧٢٧ م .

(17) **لاوْ تْسَه** (Lao Tze) فيلسوف صينِي : وُلد عام ٦٠٤ ق م . عَمِل في خزانة الملفات و الوثائق الملكية آنذاك ثُمَّ أسَّس مدرسته الخاصة في الفلسفة . و لكن القول الراجح بين علماء التاريخ و الفلاسفة أنه كان شخصية أسطورية .

جاهول : عليَّ أنْ أقرَّ بأنكَ مُحقٌّ في كل ما قلتَ ، و لكن حال الأشياء اليوم يجعل من غير المنطقي الاستغناء عن الْهَاتف والكهرباء .

فِطْرونِيوسْ : نحن لا نتكلم عن هذا يا صديقي العزيز ، بل نُحلِّل مفاهيم «التطوُّر» و «التخلُّف» ، و نرى كيف أنها في الواقع تتصل بحقائق تختلف عمَّا ألفناه منها . لقد رأينا حتى الآن أنَّ «التطوُّر» و «الحضارة» يجب أنْ يقوما على أساس القضاء على «الفقر» و على تفوُّق «العلم» على «التكنولوجيا» ، لأنَّ علَّة وجود «التكنولوجيا» مرهونة بِمقدار ما تقدِّمه من منفعة للعلم .

جاهول : لنستمرَّ إذن في هذا الطريق . حدِّثْني عن عوامل أخرى تؤثِّر على مفهومي «التطوُّر» و «الحضارة» .

فِطْرونِيوسْ : حسناً . نستطيع الآن أنْ نضع «الأمْن» في مواجهة «القمع» ، و سنثبتُ هكذا أنَّ الأمن الحقيقي للمواطن لا يقوم إلا على التربية .

و هنا لا نجد بُدًّا من اللجوء إلى **كانْتْ** (Kant)[١٨]، ففلسفته تقوم على مبدأ أساسي – لكنَّه جوهري – مفاده أنه لا يُمكن لأحد أنْ يكون صالِحاً أخلاقيًّا ما لَم يكن عنده أمل في ثواب . في مقدورنا أنْ نتحدث حول هذا الرأي بِما يملأ دائرة معارف كاملة ، و لكن حسبنا الآن شرح موجز .

فعلاً ، فلماذا عليَّ أنْ أكون صالِحاً إنْ كان ما ينتظرني في النهاية هو الموت و حسب ؟ لِكي أكون صالِحاً فأنا محتاج إلى سبب ، و السبب الوحيد الذي يرضيني هو أنّني سأتلقّى في الحياة الأخرى جائزةً هي أكبر بكثير من الْمَجهود الذي بذلتُه في الحياة الدنيا لكي أظل صالِحاً .

---

[١٨] **إيْمّنوولْ كانْتْ** (Immanuel Kant) فيلسوف ألمـاني : وُلـد في كُنيگْسبَرْگْ (Königsberg ، و تسمى اليوم : كالينينْگِرادُ (Kaliningrado) و هي داخـل روسـيا الاتحادية) ٢٣ نيسان ١٧٢٤ م . في عام ١٧٤٠ م دخل جامعة كُنيگْسْبَرْگْ و درس فيهـا الإلَهيات . عمل عدة سنوات كمؤدِّب في مدينة آرْنْسْدُرْفْ (Arnsdorf) . في عام ١٧٤٦ م حصل على الدكتوراه من جامعة كُنيگْسْبَرْگْ ، و في عام ١٧٧٠ م بدأ كمدرس فيهـا . توفي ١٢ شباط عام ١٨٠٤ م .

هنا يتوقف **كانْتْ** ، لكنَّنا نَمتلك الجواب ، فنحن المسلمين نعرف أنَّ ثَمَّة حياة أخرى أسعد من هذه بكثير ، وسنثاب فيها بالذات لأنَّنا كُنَّا صالِحِيْن في هذه الدنيا .

فعندما تنقل هذه المعرفة كما يجب ، نكون قد تلقَّينا تربيةً و تلقيناً ، و بالتالي أمناً ؛ فالْمُجتمع الذي تربّى على مفهوم «الحياة الأخرى» سيكون مُهتمًّا بتطوير طبع صالِح وكريْم و لطيف و خدوم و عادل ، لا ينتظر ثواباً في هذه الحياة بل في الحياة الأخرى .

جاهول : ما تقوله صحيح ؛ و أنا الآن أتصور ذلك الْمُجتمع الذي سيعمُّ فيه السلام من دون شرطة تَحرس الشوارع و ستحل بين أفراده العلاقات الطيبة .

فِطْرونِيوسْ : نعم ، فليس في الإمكان أنْ يكون الْمُجتمع آمناً لِمجرَّد نشر الشرطة في كل مكان ، بل إنَّ نشر القوات هو دليل على أنَّ ذلك الْمُجتمع أجاز الجريْمة و العنف عنصرَين داخليَيْن و طبيعيَيْن فيه .

و هكذا فعندما تقول لأحد ما بأنَّ امرأةً اغتُصبتْ في الساعة العاشرة ليلاً و هي تَجتاز حديقةً عامةً فسيَردُّ عليكَ

- مبَرِّراً الواقعة - قائلاً : "إنها مجنونة بلا شكٍّ لِكي تقطع الحديقة في تلك الساعة !" ، أيْ أنَّ الجريْمة صارتْ طبيعيةً ، و صار العالَم كله يقرُّ - بِحسب مكان الواقعة و ساعتها - بأنْ تُسرَق أو أنْ تُغتَصب أو أنْ تُقتَل ، و يرى بأنَّ الحل لا يتأتَّى إلا عبر زيادة عدد الشرطة و تَجنُّب المرور أو التحرُّك في تلك المناطق في ساعات معينة .

و لو أجرينا دراسةً إحصائيةً سريعةً للبلدان الأخطر في العالَم لوجدنا أنها نفسها التي تَمتلك أكبر عدد من رجال الشرطة لِمحاربة الجريْمة .

"أنا لا أسرق لأنِّني أرجو ثواباً كبيراً لقاء امتناعي عن أخذ ما ليس لي و إنْ كنتُ معدماً" ، هذه الصفة الفطرية ستنمِّي جوانب إيْجابيةً كثيرةً في الشخصية الإنسانية كالصدق و التواضع ؛ أما الغشُّ و الكذب و التكبُّر فلطالما جرَّتْ الْمُجتمعات الراهنة إلى الويلات .

فلدينا إذن عنصر آخر لقياس التطوُّر الحقيقي والحضارة الحقيقية لِمجتمع من الْمُجتمعات ، و هو : الأمان الناتج عن التربية المناسبة .

جاهول : أخشى أنكَ تطرق موضوعاً شائكاً ، فكل العالَم يتكلم عن التربية ، لكنَّ أحداً لا يتَّفق على ماهية تربية الأولاد أو تربية المواطِنيْن ... الخ .

فِطْرونيوسْ : بالطبع إنها كلمة شائكة ، لأنها تعرِّف حقائق متناقضةً جدًّا . علينا أولاً أنْ نَميِّز بين «التربية» و «الإعلام» . التربية الحقيقية تكتسب بالانسجام البيئي ، أيْ : بتقليد سلوك الأشخاص الذين نعتبرهم متفوِّقِيْن و الذين نشعر تِجاههم بالاحترام و التقدير الكبيرَين . و يفعل هذا العامل فعله خصوصاً أثناء الطفولة ، فالطفل يقلِّد والدَيه و إخوته الكبار الذين هم بالنسبة إليه قدوة تحتذى - إنْ صحَّ التعبير - وهذه هي بُنية «الفطرة» التي لو استمرَّتْ بصورة مناسبة فإنَّ الطفل سينمو تربويًّا .

أما «الإعلام» فإنه لا يربِّي ، بل يملأ رأس الطفل بأمور هي في الكثير من الأحيان غير ذات نفع ؛ بينما طبعه وشخصيته تطوران جوانبه الأكثر سلبيةً كالأنانية و التعسُّف و القسوة و الْحاجة و غيرها . و لن ينفع أنْ تُحدِّث ولدكَ عن وجوب الأكل جلوساً على الأرض إنْ كنتَ أنتَ تأكل

و أنتَ جالس على الطاولة ، فإنْ جلستَ على الأرض وتناولتَ الطعام فلن تَحتاج إلى قولِ شيء ، و سيجلس ولدكَ من نفسه معكَ بكل طبيعية .

و مع أنَّ ذلك ينبع من طبيعة الشعوب فمن الْحَرِيِّ بنا تأمُّل الصمت الذي تلزمه الأمهات الْهِنديات عندما يشرحن لأولادهن العجائب التي وضعها الخالق على الأرض . بالإصبع يشرن إلى حشرة أم الأربعة و الأربعين وهي تتسلق مجتهدةً شجرةً لبلوغ الأوراق الْخَضر التي تقتات عليها ؛ أو إلى خرير المياه الهادئ و هي تجري في السواقي . هذه التربية تنمِّي في الطفل الْهِندي القدرة على الانتباه وتنمِّي فيه حبَّ الطبيعة و الخالق ، و تثير في نفسه الإعجاب بِهما ، كما أنها تبعده عن الشعوذة . حين يكون الطفل قد تلقَّى تربيةً جيِّدةً فإنَّ اكتساب المعلومات لا يُمثِّل بالنسبة إليه أية صعوبة و لا أية مشكلة خاصة .

و من هذا نستنتج أنَّ البلد الذي يدعى «متطوراً» أو «متحضراً» تغلب فيه التربية على «الإعلام» .

جاهول : بدأتُ أفهم التركيبة التي تبنِي عليها نظريتكَ ، فكل ما يفصلنا عن «الفطرة» يفصلنا عن «التطوُّر» و عن «الحضارة» ، و كل ما يربطنا بِها يحدث فينا تطوراً وحضارةً، أليس كذلك ؟ .

فِطْرونِيوسْ : بلى ، فالأمر هكذا في شكل من الأشكال .

جاهول : أتَمنَّى عليكَ الآن أنْ توضِّح لي الفرق بين «الطبيعة البشرية» و «الثقافة» .

فِطْرونِيوسْ : مبدئيًّا هناك فرق كبير بينهما . تأمَّلِ الملابس ، فَوِفقاً للفطرة فقد بَحَث الإنسان دائماً عن ملابس واسعة و مريْحة لا تُحدِّد ملامح جسمه و تسمح له بِحركة حُرَّة . الأفارقة مثلاً اعتادوا ارتداء ملابس تناسب أجواءهم الحارة ، وكذلك الأمر مع الجلباب العربي أو قمصان الباكستانيِّيْن الطويلة وبناطيلهم العريضة ؛ أما الأتراك فقد طوَّروا بنطالاً فضفاضاً كبير الشبه بِما يرتديه الجندي الياباني القديْم المعروف بــ«الساموريْ» .

و لكن ماذا حدث عندما بدأتِ «الثقافة» تَحل مَحل «الطبيعة البشرية» و تنشر «عولمتها» ؟ لقد تبنَّتْ جَميع

الشعوب الآن شكلاً واحداً من أشكال الْهِنْدام متماثلاً و غير مريح ، فالملابس هي نفسها في كل مكان ، و هي مثيرة للضحك أحياناً .

لدينا مثال على ذلك في ربطة العنق (corbata) ، وهي كلمة مشتقّة مِن croata (كُرُوأَتا) ؛ كان العثمانيون يطلقونَها على الكرواتيِّيْن الذين وقعوا أسرى لديهم و لَم يعتنقوا الإسلام ؛ كان لونُها في العادة أزرق ، و كان يشار إلى الشخص الذي يرتدي ربطة عنق زرقاء بأنه عبد كرواتي كافر . لاحِظْ الآن كيف أنَّ «الثقافة» - التي عادةً ما تبثُّ الجهل بين الناس- تَمكَّنتْ من تقديْم ربطة العنق على أنها أسْمى رمز للحضارة ؛ لاحِظْ كيف تَهزأ «الثقافة» بالعباد حين تُجبرهم على وضع عقدة على حناجرهم .

و يظن الأتراك و الأفارقة والعرب الآن أنَّ ربطات العنق و بنطلونات رعاة البقر تُشكّل جزءاً من طبيعتهم ، بل من حقنا أنْ نتساءل : لماذا هجرتْ هذه الشعوب هِندامها وارتدَتْ هندام سواها ؟ الجواب على هذا السؤال بسيط :

فـــ«الثقافة» حصرية ، أيْ أنها لا تتقبل صِيَغاً أخرى ، وجَميع الحيوانات يجب أنْ تعيش كما يعيش الكلب .

لنوجِّهْ اهتمامنا الآن إلى المتاحف ، فالشعوب التي ارتدَتْ ربطة العنق هي ذاتُها التي شيَّدتِ المتاحف ، و لكن : ما هو المتحف ؟ هو - قبل كل شيء - مكان تعرض فيه غنائم المستعمر الأوربي ، أيْ : ما سرقتْه أوربا من العالَم ؛ ويشير كذلك إلى انتزاع الجمال من الحياة اليومية ، ففي المتاحف طاولات جَميلة ، و لكني أتناول القهوة على طاولة من البلاستيك أو من الفورميكا .

تقتضي «الفطرة» أنْ يكون الفن في كل ما نفعله . وهكذا كان الأمر حتى أدخلتِ «الثقافة» الغربية - و هي من إنتاج الغرب - مفهومَي «الموضة» و «الوظيفة المطلوبة»، وصارتْ جَميع الأشياء تصنع بِهدف استعمالِها وإلقائها ؛ و إنْ أراد الإنسان أنْ يرى شيئاً جَميلاً مصنوعاً يدويًّا فله أنْ يزور المتاحف في عطلة نِهاية الأسبوع .

لقد أوجدتِ «الطبيعة البشرية» ضروباً كثيرةً و بالغة الجمال من الفنون الشعبية ، أما «الثقافة» فقد استأصلتْها

وأدخلتْ مَحلها الإنتاج الصناعي الوفير و الموادِّ المبتذلة والنوعيات الرخيصة ، فهل ترى الآن الفرق بين هذين المفهومَيْن ؟ .

جاهول : نعم ، أفهم ما تقصد ، و لكن : أين تُصنَّف ، على سبيل المثال ، الفن التجريدي ؟ أظن أنه أكثر تشويقاً من الفن التصويري الذي يعبِّر عن أشياء أكثر و بصورة أعمق ؟ .

فِطْرونِيوسْ : أوافقكَ الرأي ، و لكن الفن التجريدي لا علاقة له بالثقافة أصلاً ، فقد استخدمه الإنسان منذ آلاف السنِيْن ديكوراً أو للتعبير عن بعض المفاهيم الميتافيزيقية التي كان من المستحيل عليه أنْ يعبِّر عنها بطريقة أخرى .

مثال على ذلك ما فعله النبيُّ **محمَّد** ﷺ حين استخدم الرسم الْمُجرَّد ليوضِّح لأصحابه تعاليم متقدمة :

عن **عبد الله** [أيْ : **ابن مسعود**] ﵁ قال : خَطَّ النبي ﷺ خَطًّا مُربَّعاً ، و خَطَّ خَطًّا في الوسط خارِجاً منه ، و خَطَّ خُطَطاً صِغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط ، و قال : "**هذا الإنسان ، و هذا أجله مُحيط به** - أو : "**قد أحاط به**" - **و هذا الذي هو خارِج**

أمله ، و هذه الْخُطَطُ الصغار الأعراض ؛ فإنْ أخطأه هذا نَهَشَه هذا ، و إنْ أخطأه هذه نَهَشَه هذا" [١٩] .

و كانتِ النتيجة صورةً جَميلةً تبيِّن أنَّ المشاريع الإنسانية تتجاوز مرحلة تَحقُّقها و تحدث في الإنسان قلقاً وتشوُّقاً يستحيل إشباعهما .

و لو توجَّهنا الآن إلى قرى أفريقيا أو أمريكا لرأينا كيف أنَّ كل الشعوب طوَّرتْ – على مدى تاريْخها – طريقةً فريدةً في استخدام الفن الْمجرَّد لتلك الأهداف .

و لكنَّ الفن التجريدي تَحوَّل – مع بداية «الثقافة» – إلى حَمَّالة لكل أنواع الأمراض النفسية و لكل هذيان «الفنانيْن» الأوربيِّيْن . و اضطر تناسق الأشكال و الألوان ذاك إلى التراجع أمام هجمة الأحلام الجنونية للطبقة الجديدة من الفنانيْن ، التي عكَّرتْ مياه الفن بعجرفتها و انتهازيتها وقصورها العقلي . و اضطر آلاف الحِرفيِّيْن من كل أنْحاء

---

(١٩) أخرجه الإمام **البخاري** في صحيحه : كتاب الرقاق : باب في الأمل و طوله : ج. ٤ ص. ٢٢٢٦ ، حديث ر. ٦٠٥٤ ؛ دار العلوم الإنسانية ١٩٩٣ م دمشق .

العالَم إلى إغلاق ورشات عملهم ، و اختفى المئات من الفنيِّيْن و إلى الأبد .

«الثقافة» هي على الدوام تدمير لـــ«الطبيعة البشرية»، هي عولمة و هي تحديد . أما «الطبيعة البشرية» فهي التطوُّر الطبيعي للفطرة ، و تستند إلى جُملة من الظروف التي يفرضها المناخ و عوامل أخرى .

لقد تَحدَّثنا عن البيت العربي ، و لكنَّ البيت العربي هو نتاج «الطبيعة البشرية» . هذا البيت نفسه يصبح غير مناسب لو أنه كان في القطب الشمالي أو في إحدى الأقاليم الأفريقية . و كذا الحال بالنسبة إلى بيت الإسكيمو الجليدي و الكوخ في أفريقيا ، فهما من نتاج الفطرة كذلك .

و هكذا نرى أنَّ «الفطرة» - و إنْ كانتْ عامةً - تظهر في صور مختلفة بِحسب ظروف كل شعب من الشعوب لتفسح الْمَجال أمام نشوء «الطبيعة البشرية» . الشيء نفسه يَحدث مع الملابس أو مع أيٍّ مظهر من مظاهر الحياة التي نُحلِّلها .

جاهول : أفهم مِن ذلك أنَّ علينا أنْ نتبنَّى أنْماطاً حياتيةً صممتْها «الطبيعة البشرية» لا «الثقافة» ؟ .

فِطْرونِيوسْ : فعلاً ، هذا صحيح ، فـ«الطبيعة البشرية» هي – في حدِّ ذاتِها – تربية و حضارة و تقدُّم ؛ ذلك لأنها الصيغة الفريدة التي تظهر فيها «الفطرة» في شعب من الشعوب .

جاهول : أظن أنَّني أفهم موقفكَ ، و لكنَّ من الصعب عليَّ قبوله ، لأنكَ تقلب كل قِيَمنا رأساً على عقب ؛ فـ«الثقافة» – بِحسب رؤيتكَ ، و هي أسْمى ما في الْمُجتمعات الحاضرة – هي : أشدُّ الأمور إضراراً بِهذه الْمُجتمعات ، بينما تقدِّم «الفطرة» – و هي شكل من أشكال الماضي ، و نَمَط من الحياة جرى اجتيازه بالتقدُّم و «التكنولوجيا» – على أنها الحل لأمراضنا ، و على أنها المعيار الحقيقي لتقرير أيّ الْمُجتمعات متقدمة و حضارية و أيّها غير ذلك .

عليكَ أنْ تقرَّ بأنكَ تبالغ في ما تطلبه منا . في مقدورنا انتقاد جوانب من مجتمع ما ، و لكنَّنا لا نستطيع أنْ نَمحو كل جوانبها و نضرب بِها عرض الحائط لنبدأ بِما نرى أنه الأسوأ و بِما كُنا قد تَخطيناه .

فِطْرونِيوسْ : أفهم قلقكَ إزاء كلماتِي ، و لكنَّكَ تُخطئ ثانيةً في تقديراتكَ . إنْ كان مجتمعاتنا الراهنة تقوم على أساس قوي و متماسك – حسب قولكَ – لَما اهتزَّتْ كما يَحدث لَها الآن ، عليكَ أولاً أنْ تنبذ مفهوم «التقدم» . لَم يَخلق الإنسانُ مُخدِّراً أكثر سَمية من فكرة التقدم !

و ها نحن نربط من جديد بين «التكنولوجيا» و«تقدم الإنسانية» ؛ فالطيار الذي يقود طائرةً أسرع من الصوت لا يختلف عن جدِّكَ الذي كان يتوجه إلى عمله وهو يركب حِماراً ، بل لو قارنَّا بين مستويهما الأخلاقي والنَّزاهة و الصدق عند كل منهما فمِن الممكن أنْ يكون جدكَ و الناس من جيله أكثر تَحضُّراً و أكثر إنسانيةً . قد يكمن الفرق الوحيد في أنَّ الطيار يعرف تقنيةً يجهلها جدكَ ، كما أنَّ جدكَ لو ترك الحمار للطيار فلا شكَّ أنَّ هذا لن يدري ما يفعله معه . لا أظن أنَّ في مقدور طيار من الطيارين اليوم أنْ يصعد – و لو على ظهر جمل – و يسير به مسافة ٢٠ كيلومتراً .

أريد بذلك أنْ أقول يا صديقي : إنَّ التفوُّق البشري يجب ألا يؤسَّس على استخدام «التكنولوجيا» ، بل على تَجسيد القِيَم الإنسانية كالكرم و الصدق و النَّزاهة والتواضع و الشجاعة و اللطف ... الخ .

أو تظن أنَّ **سقراط** أو **أبا بكر** ﵁ [٢٠] سيبدان صِبيانَيْن مغفلَيْن لو تكلّما مع رائدي فضاء من الأمريكان أو الروس ؟ و أيُّ الفريقَيْن سيربح في رأيكَ المناظرة ؟ .

---

(٢٠) (مكة ٥١ ق هـ = ٥٧٣ م – المدينة ١٣ هـ = ٦٣٤ م) **عبد الله بن عثمان بن عامر بن كعب التيمي القرشي أبو بكر** ، و لقبه : **الصِّدِّيق و العتيق** ، و يُعرَف بـ«**ابن أبي قحافة**» ؛ أول الخلفاء الراشدين و أول مَن آمن برسول الله ﷺ من الرجال ، و هو أحد العشرة المبشَّرين بالجنة .

وُلد بمكة بعد الفيل بسنتين و ستة أشهر ، و نشأ سيِّداً مِن سادات قريش . و كان عالماً بأنساب القبائل و أخبار العرب ، و كان غنيًّا ، و لَم يشرب الخمر في الجاهلية . صحب النبي ﷺ قبل البعثة و لازمه طوال إقامته بمكة ، و رافقه في الهِجرة و في الغار ، و شهد معه المشاهد كلها ، و حَمل الراية العظمى يوم تبوك ، و احتمل الشدائد مع رسول الله ﷺ ، وبذل الأموال في سبيل الله . و أسلم على يده خلائق من الصحابة ، منهم خَمسة من المبشرين بالجنة ، و هم : **عثمان و الزبَيْر و طلحة و عبد الرحمن بن أبي وقّاص** ؛ و أعتق سبعة كانوا يُعذِّبيْن في الله تعالى ، منهم : **بلال و عمار** (...) . =

جاهول : لا شكَّ أنَّ مَن سيفوز هو **سقراط** و **أبو بكر** ﷺ .

فِطْرونِيوسْ : بلا أدنَى شكٍّ . و عليه فلا يمكننا ربط «التكنولوجيا» بالتفوق البشري ، لأهما - كما نرى - مفهومان متناقضان .

ألا ترى أنَّ أمةً مضيافةً تحتضن عابر السبيل و تَمنح الغريب المهاجر الإحساس بأنه في بيته و لا تسمح أنْ يبيت أحد من أبنائها في الشارع ، و تدعم حياةً صحيةً و بسيطةً ،

= رضيه المسلمون خليفةً بعد وفاة رسول الله ﷺ سنة ١١ هـ ، فحارب المرتدين ومانعي الزكاة ، و مكّن الإسلام في الجزيرة العربية و أرسل الجيوش فافتُتحتْ في أيامه بلاد الشام و قسم كبير من العراق ؛ و اختار القواد الأكفاء الأمناء كـ**خالد بن الوليد** و **عمرو بن العاص** و **أبي عبيدة بن الجراح** و **العلاء بن الحضرمي** و **يزيد بن أبي سفيان** و **المثنى بن الحارثة** ؛ و اصطفى لنفسه مستشارين ، منهم : **عمر بن الخطاب** و **علي بن أبي طالب** .

و جُمع القرآن في عهده (...) ؛ له ١٣٢ حديثاً في كتب الحديث ، و روى عنه عدد كبير من الصحابة .

(*الإصابة* : ١٠١/٤ ، *أسد الغابة* : ٣٠٩/٣ ، *تهذيب الأسماء* : ١٨١/٢ ، *تاريخ الخلفاء* : ص. ٢٢٧ ، *الأعلام* : ٢٣٧/٤ ، *حلية الأولياء* : ٢٨/١ ، *الرياض النضرة* : ٦١/١)

[*مرجع العلوم الإسلامية* د. **محمد الزحيلي** : ص. ٢٦ – ٢٧ ؛ دار المعرفة (دون تاريخ) دمشق]

و تُمجِّد القِيَم الإنسانية و تقدِّمها على القيم «الثقافية» ، هي أكثر «تقدُّماً» و «حضارةً» ؟

و لكن ، ماذا نرى في الْمُجتمعات التي ندعوها «متقدمةً» ؟ يافطات أمام المساكن الخاصة تقول : "لا تدخل هذا العقار" أو "احذِرْ ! كلب خطير" أو "إنْ تَجاوزتَ هذا الخط فستنطلق عليك رصاصة" ؛ أجهزة تصوير مَخفية ، وأبواباً مدرَّعةً ، و حُرَّاساً ترافقهم كلاب مُدرَّبة ، و أجهزة إنذار ، و كتابات على الْجُدران تطلب من «المهاجرِين القذرِين» ترك البلد ، و مئات الرجال و النساء الذين يفترشون الأرض ليل نَهار ، و ترويْجاً للصور الإباحية و كل أنواع الرذائل و الإطراء على الفاعلية بأيِّ ثَمن في مقابل النَّزاهة ، و إنْ حَملتْنِي هذه إلى الفقر .

فهل في الإمكان أنْ نستمرَّ في تسمية هذه الْمُجتمعات بالمتقدمة و المتحضرة ؟ .

جاهول : حسناً ، لنفترض أنَّني متَّفِق معكَ في كل ما قلتَ ، لكن بقي عندي سؤال أو شكٌّ ، فكيف صنعنا هذه الْمُجتمعات

الفاسدة و الجاهلة انطلاقاً من نفس الرغبة في السعادة والتقدم؟ .

فِطْرونِيوسْ : عليكَ أولاً أنْ تترك فكرة التطوُّر ، فليس هناك فكرة كهذه ، و هنا بالذات تكمن الإجابة على سؤالكَ ، هي – في الحقيقة – «انقلاب دولة» ... «انقلاب على الله» ...

لاحِظْ أنَّ الإنسان يقبل بوجود الله ، لكنَّه – في الوقت نفسه – يتمرَّد على هذا الوجود ، يريد أنْ يكون هو نفسه ذلك الربّ المبجَّل المهيب . و لكن : كيف يحل محله بطريقة مقنعة ؟ بأنْ يصنع ربًّا آخر لا يتدخل في شؤون الدنيا؛ أتعرف من يكون ؟ .

جاهول : لا أعرفه ، بالله عليكَ لقد شوقتَنِي ! .

فِطْرونِيوسْ : اسْمه «التاريخ» ، و هو نفسه «الزمان» . و هنا تظهر الحاجة إلى مفهومَيْن يشيران إلى هذا الإله الوليد ، و هُما : «التطوُّر» و «التقدم» ؛ و أيُّ نقص أو خطأ سيُستدرك في مستقبل بعيد أو قريب .

«التاريخ» يزحف و يتواصل و يتقدم نحو غد مشرق . و في هذا السياق فقد أدَّتِ «التكنولوجيا» دور

السراب بالنسبة إلى إنسان اليوم ، فقد تَخيَّل هذا الإنسانُ أنَّ «التكنولوجيا» هي الذراع اليمنَى لذلك الإله القدير الذي سُمِّي «تاريْخاً» ، و هما الاثنان سيحملان الإنسانية إلى الكمال و إلى الخلود .

لكننا اقتربنا من ذلك الغدير بدرجة تكفي لِكي ننتبه إلى أنه مُجرَّد سراب و أنَّ ليس هناك غير الرمل ، رمل لا نِهاية له و في جَميع الأنْحاء . أطحنا بالرب و جلسنا على عرشه ، فلْنواصل هذه المهزلة القبيحة إلى أنْ يتنبَّه هؤلاء الْحَمقى التعساء إلى الْخَديعة و يخرجونا من هنا ركلاً !

القوى المتنفذة هي التي تُخطِّط اليوم - الواحدة بعد الأخرى - عوالِم و حقائق افتراضيةً يُعلَّق فيها المواطنون بينما تُحرِّك هي اللعب من الخلف ، فكيف يمكن الحديث عن تقدُّم في الوقت الذي يُدمَّر فيه نصف العالَم بأسلحة يُحرِّمها العالَم الذي يسمِّي نفسه بالمتحضر ؟! .

ها هو التعذيب ، الذي شاع و أتقنتْ أساليبه أكثر من أيِّ وقت مضى ؛ و ها هو الاستعمار يتواصل في مرحلته

الأكثر ضرراً و المتمثلة في سرقة اللغات و الطبائع البشرية وروحانيات الشعوب .

مَن هو الأكثر تَحضُّراً في حارتكَ ؟ هل هو السيء ؟ هل هذا هو ما جاء به تقدُّمكَ و حضارتكَ : شخص شرير جاهل و بطين يُحطِّم أنف كل مَن يرفض أنْ يعطيه شطيرةً أو قطعاً من النقود يرضي بِها بعض نزواته ؟ .

جاهول : و ماذا في مقدوري أنْ أقول لكَ ؟ لا شكَّ أنَّ هناك الكثير من عناصر التأمُّل في كل ما ذكرتَ ، و لكن ربَّما استطعنا أنْ نكمل القاعدة لو أننا تَحدَّثنا عن تَخطيط المدن ، فكيف تُنظَّم المدن ؟ .

فِطْرونِيوسْ : في تنظيم المدن نرى أنَّ المشاكل هي دائماً نفسها . هنا يُمكن أنْ نواجه مفهومَيْن قد تثيران مشاعر الكثيرِين ، أقصد بِهما : «التخطيط» و «التطوُّر البيولوجي» .

لاحِظْ صديقي **جاهول** أنَّ المدينة هي جسم حيٌّ و«بيولوجي» يعيش و يتنفس ، يتحرك و يتجدد ، لا شيء فيه – تقريباً – متوقع . و كما هو حال الجسم البشري فإنَّ فيه أشياء ظاهرة و خارجية و واضحة ، و فيه أشياء خفية

غير مرئية تعمل لإبقائه على قيد الحياة . لكن المدينة هي – قبل كل شيء – مكان للسكن ، و عليه فإنّ سُكّانه هم روحه و هم نبضه .

أما «التخطيط» فيرى في المدينة كياناً ميتاً يجب تنظيمه وْفق إملاءات أناس هم في أغلب الأحيان لا يسكنون فيها . مكان ميت يأوي مواطنيْن آليِّيْن ، روبوتات تتحرك كالدمى ؛ إنهم مواطنون لَم تُخطَّط لَهم مدينتهم و حسب ، بل حياتَهم و طُرقهم التي يتوجب عليهم السير فيها كل يوم . بيوتُهم أوكار و جحور يكون فيها انقطاعهم الفظيع موصولاً بالمكائن المولّدة للأحاسيس ؛ أماكن صغيرة و سُفلية حيث لا يزعجهم فيها أحد .

للمدينة «البيولوجية» مظهر فوضوي ، فلها شكل المتاهة ، لأنها صُنعتْ على شاكلة الإنسان الذي يسكن فيها : إنسان آدمي لا تَحدُّه خطوط و لا يعرف التناسق ولا البرودة (اللامبالاة) ، بل هو كيان خلاّق يصحِّح و يتخيل و يَحلم و يسير – أحياناً من دون وجهة مُحدَّدة – و يبحث و يحب ، أحياناً بحرارة .

مدينة «البيولوجية» تأخذ في الْحُسبان الظروف والأمور الطارئة و ذاتية سكانِها . في المدينة «المخططة» متنْزهات لأنَّ أحداً لا يستطيع تَحمُّل البقاء لوقت طويل داخل «الكهوف» ؛ و في المدينة «المخططة» تكون الحياة في الشارع ، لأنّ «الجحور» ترمي بنا إلى الخارج و تطردنا ؛ والمدينة «المخططة» هي مدينة منفيِّين ، مدينة نفي دائم .

المدينة «البيولوجية» يعيش الناس مع الوسط ، لأنَّ بيوتَهم أماكن مفتوحة تدخلها الشمس و القمر و النجوم والمطر و الريح ؛ الشوارع فيها مَمرات للوصول إلى البيوت، حيث ينتظرنا الأصدقاء و الجيران ، و برودة نبع الماء و أريج الأشجار المثمرة التي تنمو فيها . فليستِ الشوارع هي ما يعوّل عليه ، ما يعوّل عليه هي الواحات .

المدن «المخططة» تُخطَّط كذلك الأسواق التي تتحول إلى أسواق كبيرة لا يتكلم فيها أحد مع أحد . وتظهر فيها من جديد الدمى المتحركة تسير في الممرات وهي تدفع عربات المشتريات . كل شيء ميت ، كاللعبة . أما

أسواق المدينة «البايولوجية» فتظهر في كل مكان و هي مليئة بالحركة و بالحياة .

جاهول : أوافق على كل ما قلتَه ، فكلنا نفضِّل الأسواق التقليدية على تلك المساحات الكبيرة الباردة التي تشعر فيها حقًّا بأنكَ إنسان آلِي أو لعبة ، لكنَّ المدينة التي تقترحها أنتَ تتطلب أنْ يعي سكانُها ما يفعلونه ، و هذا مستحيل . في كل جَماعة بشرية يُشكِّل النخبة عدد قليل من الأفراد ، بينما يشكل الباقون ما ندعوه بـــ«الجمهور» . هذا الجمهور جاهل وغير واع ، يجب عليكَ قيادته و الكلام معه و أمره بِما يتوجب عليه فعله ، و إلا تحوَّلتِ المدينة – مدينتكَ المثالية تلك – إلى فوضى .

فِطْرونِيوسْ : حسناً ، سأقول لكَ أولاً أنَّ الفوضى – أو ما تسميه أنتَ بالفوضى – ليستْ على هذا القدر من السوء .

أمِّلْ للحظة في أمرٍ يبدو لي بالغ الأهمية : للمدينة والفرد مصالِح مختلفة ، و لأجل ذلك فمِن الضروري أنْ يكون هناك التزام ليكون الاثنان راضيَيْن . لو نظَّمنا الحياة آخذِين في الْحُسبان الْمُجتمع المدنِي و حسب ، فسيصاب

الفرد بالجنون شيئاً فشيئاً ؛ أما إذا أعرنا اهتمامنا للفرد ورفاهيته فإنّ مجتمع المدينة سيعيش فوضى عظيمةً . الحالتان - اليوم - موجودتان و فاعلتان ، و هو ما يولد فينا رفضاً لدى زيارتنا لأيِّ مجتمع مدنِي .

فمدن اليوم تُمثّل اعتداءً صارخاً على السابلة : كل شيء فيها محكوم بالسيارات ، و كل شيء يتمُّ على ضوء التفكير بالسيارات ؛ و ليس في مقدورنا تغيير هذه الحال ما لَم نغير مفهوم المدينة . يجب ألا يتجاوز عدد سكان المدينة «البيولوجية» ٢٠٠،٠٠٠ نسمة ، و يجب أنْ تُنظَّم في حلقات متراكزة بِحيث يَمتلك كل جانب من جوانب الحياة المدنية ما يَخصُّه ، من دون أنْ يؤثِّر على البقية .

فالْحِزام الأول يتَّصل بالْمَحطات ، فهو يضمُّ محطات للسيارات و الحافلات ؛ و محطات ثانوية للقطار و خانات للخيل أو للجمال ؛ و لِهذا الحزام أربع بوابات تُمهِّد للحزام الثاني ، و أربعة أنفاق تستطيع العجلات الطواف عبرها والدخول إلى أيِّ واحد من الأحزمة من دون أنْ تعانِي المدينة

من الضجيج و التلوُّث الصادرَين من العربات ، و لتسمح لسكانِها بالسير فيها بكل حرية .

أما الْحِزام الثاني فيحتضن المصانع و الورش التي يمكن الدخول إليها عبر الأنفاق أو عبر البوابات الأربع للحزام الأول .

و يضمُّ الحزام الثالث فضاءات للرياضة و للتسلية كالمسابح و خزانات المياه و مضامير الفروسية و ميدان رمي النشاب و غيرها .

و في الحزام الرابع تقع المدينة ذاتُها بسوقها ومساكنها و مدارسها و أماكنها الاجتماعية .

و عند اكتمال عدد السكان تنشأ مدينة و مدن أخرى ليستْ متباعدةً بعضها عن بعضها الآخر : بين ٣٠ إلى ١٠٠ كيلومتر ، مما يسمح بدخول سهل من مدينة إلى أخرى .

يجب كذلك أنْ يوجد حزام زراعي يُحيط بالحزام الأول الخاص بالْمَحطات ليسهل الربط الدائم بين المدينة والريف .

هكذا يكون لدينا بلد مأهول و متوازن سكانيًّا ، بدلاً من بلد فارغ يُركِّز كل سكانه في ثلاث مدن كبيرة أو أربع و يترك بقيته الباقية خاليةً من السكان" .

جاهول : "لكنَّكَ لا تنكر أنَّ في كلامكَ من التخطيط فوق ما فيه من «البيولوجي» .

فِطْرونِيوسْ : بالطبع ، فليستِ المدينة «البايولوجية» مدينة فوضوية، بل هناك تَخطيط ، و من ثُمَّ نُموٌّ و تطوُّر طبيعي .

جاهول : فهمتُ ، على أية حال - و بِحسب ما أرى - فنحن الآن في وقت تخلَّتْ فيه «الحضارة» و «التقدم» عن مكانِها لصالِح التحكُّم و تحويل مجتمعاتنا و أفرادنا إلى روبوتات تكنولوجية . اغفرْ لي هذا التشاؤم و لكنِي لا أجد تصوراً آخر .

فِطْرونِيوسْ : أتفهم يأسكَ ؟ و لكن لا تنس أنَّ جَميع العصور عاشتْ تقدُّماً مشابِهاً . كل شيء ينتهي و كل شيء يتجدد . المهمُّ - في اللحظة الراهنة - هو أنْ ندرك أنَّ مفاهيم «التقدُّم» و «الحضارة» هذه كما نفهمها اليوم إنما هي مفاهيم خاطئة .

جاهول : يا صديقي العزيز **فِطْرونِيوسْ** ، لقد فتحتَ لي الْمَجال للتفكير في أشياء كثيرة . لنترك الشتاء يَمرُّ و لنر أيَّ فهم جديد يأتِي لنا به الربيع .

فِطْرونِيوسْ : لا شكَّ أنه سيجلب لنا ازدهاراً جديداً و فرحاً جديداً .

نبوة و شامانية

يرقص الشامان حول النار و قد ارتدّى أزهى ملابسه و صبغ وجهه بأشكال و ألوان لا يعرفها غيره . يرقص و يرقص ... ويستحضر الأرواح لِكي تدلُّه على العلاج الذي ينقذ حياة امرأة عجوز مستلقية على الأرض و هي تحتضر . قبيلة المرأة تلتزم الصمت، و هي تراقب طقوسه و تنتظر أنْ تُلهِم الأرواح شامانَها العظيم .

جَوٌّ أُخّاذٌ مِن السحر و القوة ! لا أحد يبدي حَرَاكاً ، الْجَميع واثقون مِن أنَّ المعجزة ستقع من جديد . توقَّف الشامان ونظر إلى السماء ... و على الرغم من خُلوِّها من الغيوم فهناك قصف رعود و هناك ضياء بَرْق ! الْخَوف يأسر قلوب الذين يحضرون الْجَلسة .

يصرخ الشامان و يتشنج ، و يسقط على الأرض و يتلوَّى وكأنه يصارع أسداً جائعاً ؛ يَحبس الْجَميع أنفاسهم فَهُمْ يعلمون أنَّ

اللحظة دقيقة . ينهض الشامان و يرفع ذراعَيْه و يتفوَّه بكلمات مقدسة لا يفهمها أحد ، ثُمَّ يتَّجه صوب العجوز و يضع حَفْنة من الرماد حول جسمها بينما يواصل التفوُّه بالكلمات الغامضة .

تفتح العجوز عينَيْها و تعتدل في جلستها و هي تتمتم بعبارات غريبة . يلتفت الشامان إلى حيث تَجلس القبيلة و يقول : "روح العنكبوت كلَّمتْنِي ، لقد صعدتْ إلى السماء الثالثة و بدأتْ زَوْبَعة رهيبة ؛ العجوز ستشفى و قد أكَّدتْ لي ذلك" .

أدار الكل رؤوسهم نَحو المكان حيث ترقد العجوز ، فعلاً ، فقد نَهضتِ المرأة و بدأتْ تسير ؛ دنا أقرباؤها منها و رافقوها و هم يطلقون عبارات المديح و الثناء . و أدار الشامان ظهره للحاضرين وجلس على الأرض ؛ الْجَميع يعلمون أنه يتكلم مع الأرواح و أنَّ ليس عليهم أنْ يزعجوه ؛ و راح الْجَميع ينسحبون إلى خِيَامهم شيئاً فشيئاً .

لقد أثبت الشامان من جديد أنه زعيم القبيلة و الشخص الذي لا غِنَى عنه ، فهو الذي يعالِج الأمراض و يعرف السبيل الواجب اتِّباعه في كل أمر و شأن . لا أحد يعرف مِن أين يأتيه ذلك

العلم و لا تلك القوة ... إنه مَن اختارتْه الأرواح ، و هذا هو كل شيء . ليس هناك من مَدرسة للسَّحَرة ، و لذا فهو علم لا يُدرَس في مدرسة . الْجَميع يَحترمونه - و في الوقت ذاته - يَخافونه .

نظريته في نشأة الكون بسيطة نسبيًّا ، ففي الكون قِوى - هو يسمِّيها أرواحاً - قادرة تسيطر على نواح معينة من الحياة . هذه القوى موجودة داخل الإنسان و خارجه : الذكاء و الحدس والتركيز و الإرادة هي قوى بالغة القدرة موجودة داخل الإنسان وإنْ لَم يَحسن الإنسان استخدامها كما يجب ، و لَم يعرف كيف يستغلها و يستثمرها . و فضلاً عن هذه القوى الداخلية هناك أخرى خارجية يستطيع الاتصال بِها ، بل إخضاعها و استعمالَها لفائدته .

فعلاً ، فالشامان فَهِم أنَّ في كل آلية جزءاً تركيبيًّا مسؤولاً عن تشغيلها ، و جزءاً عمليًّا نوجهها منه ؛ ففي السيارة مثلاً هناك جزء تركيبِي هو : الْمُحرِّك و منظومة السحب و خفض الصدمات و القيادة ... الخ ، بينما في الجانب العملي نَجد : مفتاح التشغيل والْمِقود و عتلة تبديل السرعة و الدواسات ... الخ ؛ و لكن ، إنْ كان هناك قسمان مختلفان فسيتوجب أنْ يوجد أيضاً نوعان من

الرجال في ما يتَّصل بالسيارة : المهندسون الذين صمَّموها ، والسائق الذي يقودها و يستخدمها و الذي لا يُعنَى بالجانب التركيبي ، لأنَّ السيارة بالنسبة إليه مُجرَّد حاجة مفيدة يريد استعمالَها و الاستفادة منها .

هنا نرى أنَّ الأمر عبارة عن صَفْقَة لا تتمُّ إنْ لَم تكن جَميع الأطراف راضيةً عن الشروط ؛ و الشرط الأول الذي يطالب به المشتري هو الحصول على حالة تسمح له بقيادة السيارة من دون أنْ يسأل عن كيفية عملها و سببه ، فليس هذا ما يعنيه ، و لو أنه حاول فهم الجزء التركيبي للسيارة لاحتاج إلى سنوات من الدراسة . كما أنَّ المهندسِين الميكانيكيِّيْن يبذلون الآن جهوداً مضاعفةً لِكي يسهلوا على الزبون قيادة السيارة ، فالموديلات الحديثة جَميعها تقريباً صارتْ أوتوماتيكية بعد أنْ أزيل جهاز التعشيق و ما عاد تبديل السرعة يشغل بال السائق .

نَجد هذه الظاهرة في أية آلية نُحلِّلها . و لو أنَّنا أمعنا النظر في عمل غَسَّالة ملابس سوبر أوتوماتيكية لوجدنا أنفسنا أمام المشكلة ذاتِها ، فلِكي تشتري ربَّة البيت هذا الْجِهاز الكهربائي المنْزلي فلا بُدَّ

من وجود لوحة للوظائف : تضغط على زِرِّ التشغيل و تدوِّر قرص البَرامج و تَختار درجة الحرارة و تبدأ الغسالة بالعمل من دون أنْ تسأل ربة البيت كيف تقوم الغسالة بكل ذلك وحدها .

و الشيء نفسه يَحدث في جسمنا و في الكون ، ففي كل يوم يؤدِّي جسمنا ملايِيْن الوظائف التي نَجهلها و التي لا سيطرة لنا عليها .

نبتلع الطعام ثُمَّ بعد وقت نطرحه ، و لكن لا نعرف شيئاً عمَّا جرى في داخل معدتنا أثناء ذلك الوقت ؛ و مِن حسن الْحَظِّ أنَّ ليس عليَّ أنْ أعرف ذلك و لا أنْ أشغل فكري به . أما في الكون فالجزء التركيبِي أعقد من ذلك ، و لكنَّ الشمس - بفضل رحْمة الخالق - تظهر كَل نَهار من الشرق و تَختفي في الغرب لتضيء نصف الكرة الأرضية و تساعد النباتات على أنْ تنمُّو والكائنات البشرية على تَمثُّل الفيتامينات و الكثير من الأشياء الأخرى المفيدة و الضرورية للحياة لِكي تتحقق ؛ أما في الليل فالقمر يعطينا الضوء ، و يؤشِّر بدايات الأشهر و ينظِّم المدَّ و الْجَزْر ويتحكم في وظائف أخرى كثيرة ؛ و لكن لِكي تؤدِّي تلك الشمس

و ذلك القمر دورَيهما لا بُدَّ من وجود آلية جَبَّارة تعمل في الخلف خاضعةٍ لِخُطَّة من الأسباب و التأثيرات تَجعل الأشياء تَحدث كما نراها .

و على نحو مصغَّر نَجد في ساعة اليد ما قلناه جليًّا ، فعندما ننظر إلى الساعة لنعاين الوقت – و هو وظيفتها – نشاهد دائرةً فيها عَقْرَبان يؤشِّران الوقت . نحن لا نعرف كيف تعمل الساعة ، و لا تَهمُّنا معرفة ذلك ، لأنَّ الشيء الوحيد الذي نبتغيه من حَمِل الساعة اليدوية هو معرفة الوقت متَى أردنا ذلك ؛ لكن هذا لا يتعارض مع أنْ نعرف أنَّ في داخل العُلْبة آلية بالغة التعقيد هي التي تُحرِّك العَقْرَبَيْن بسرعة ثابتة ليؤشِّرا الوقت .

نلاحظ إذن أنَّ لكل آلية جزءاً تركيبيًّا لا يَخصُّنا و جزءاً عمليًّا يسمح لنا باستعمالِها ؛ لماذا قلنا بأنَّ الجزء التركيبِي لا يَخصنا؟ لأنَّ ما يعنينا من الأشياء هي وظيفتها ، فلا أحد يشتري ساعةً ليفكِّكها و ليتأكد من وجود آليتها الداخلية ؛ نحن نشتري الساعة لمعرفة الوقت ، و نشتري الغسالة لغسل الملابس ، و الْخَلاَّطة لعمل المايونيز ، هذا هو ما يهمُّنا ، و الوظيفة هي التي تَمنح الأشياء

معناها. المهندسون الذين صنعوا الخلاطة صنعوها لِهدف واحد ، هو: عمل المايونيز ، هذا هو الهدف منها ، و لكن لأجل استعمالِها لا بُدَّ من وجود آلية في داخل الغلاف الجذاب الذي صنعوه لَها تسمح بذلك .

لِننظر إلى القضية من زاوية أخرى . لِكي تتشكل المنظومة الشمسية كان ضروريًّا حدوث نشاط كوني عظيم امتدَّ لِملايِيْن السنِيْن ، و لكن : ماذا يغيِّر في الأمر أنْ نعرف أو لا نعرف كيف حدث النشاط الكوني ؟ لا يغيِّر شيئاً بالطبع ، لأنَّ هذا النشاط حدث لِمجرَّد قيام منظومة شَمسية ضرورية قادرة - بدورها - على صنع الحياة . في هذا المعنَى يكتسي قول العالِم الفيزيائي **فِريْمانْ دَيْسونْ** (Freeman Dyson) [1] أهَمية خاصة :

(١) **فِريْمانْ جُنْ دَيْسُنْ** (Freeman John Dyson) عـالِم في الفيزيـاء و الرياضـيات بريطاني : وُلد في كُوْذُرْنْ (Cowthorne) - بريطانيا ١٥ كانون الأول ١٩٢٣ م . درس في ثانوية وِيْنْچَسْتَرْ (Winchester) و مِن ثُمَّ في جامعة كامْبريجْ (Cambridge) ، و حصل على الدكتوره في الرياضيات عام ١٩٤٥ م . بين عامَي ١٩٥١ و ١٩٥٣ م عمل كأستاذ في جامعة كُرْنَلْ (Cornell) في إيذاكا (Ithaca) ، و في عام ١٩٥٣ م بدأ أستاذاً في معهد الدراسات المتقدمة (Institute of Advanced Study) في پِرِنْسْتونْ (Princeton) ثُمَّ =

"كلما تعمَّقتُ في تأمُّل الكون و درستُ دقائق هندسته وجدتُ المزيد من الدلائل على علمه بقدومنا" .

خطأ كبير أنْ نَخلِط بين الوظيفة و الآلية التي تُحدثها ؛ ولكن سيقول لنا قائل بأنَّ في هذا الكون ، و في هذا الكائن البشري و في كل ما يُحيط بنا ، هناك قِوى و طاقات إنْ تَمكنتُ من السيطرة عليها فستمنحنِي قدرةً عظيمةً . نعم ، هذا صحيح ، وبهذه الطريقة يفكر الشامان ، و لكن هناك مشكلة صغيرة : هل في مقدور إنسان أنْ يعرف ما هي القوى و ما هي الطاقات المناسبة ؟ وهل في مقدوره أنْ يتنبأ بعواقب استخدامها ؟ الجواب هو : كلا ! و إلا لَما وُجدتْ لوحات التشغيل . و لو استطاعتْ ربّات البيوت توصيل الغسالة بالكهرباء بأنفسهنَّ و التلاعب بالشرائح و الدوائر الكهربية إلى حين العثور على البَرنامج المطلوب لَما كلَّف المهندسون أنفسهم عَناء تصميم منظومتها التشغيلية .

= في المَجمع الوطني للعلوم في واشنطن (Washintong) عام ١٩٦٤ م . أصبح عضو في «الجمعية الملكية» (Royal Society) عام ١٩٥٢ م و في المَجمع الأمريكي للعلوم (U.S. Academy of Sciences) عام ١٩٦٤ م .

و لِنَعُدْ إلى الملاحظة السابقة : لماذا نفكّك ماكنةً ما إنْ كان ما نريد هو استعمالَها ؟ هناك قصة موجزة عن **بوذا** تصوِّر ما نريد قوله بوضوح :

يروى أنَّ **بوذا** قرَّر بعد «الإلْهام» الطوافَ في أراض شاسعة من الْهِند و التوقُّف عند كل شخص أو عند الأشخاص الأكثر تقدُّماً في كل منطقة بِهدف معرفة مستوى المعرفة و الوعي الذي بلغوه . وهكذا انتقل من مدينة إلى أخرى و من ضيعة إلى ضيعة متحدثاً مع الأكثر علماً و معرفةً في كل مكان . و حدث أنْ وصل إلى قرية صغيرة يقسمها نَهر يتثنَّى فيها - تاركاً في ناحيتها الجنوبية - جزيرة صغيرة يسكن فيها الرجل الذي كان جَميع سكان القرية يعدُّونه الأكثر تقدُّماً و الأكثر علماً . و وصل **بوذا** راجلاً إلى خَيمة ذلك الرجل الموقَّر بعد أنْ اجتاز جِسراً صغيراً يربط القرية بالجزيرة . وبعد أنْ حيَّاه كما يَجب سأله عن معرفته :

- "إلى أين وصلتَ ؟" ، و فَهِمَ العالِم في الحال مقصد **بوذا** فردَّ عليه بإيْجاز :

- "انظرْ بانتباه !" ، ثُمَّ أغلق عينَيْه و طوى رجلَيه تحت فخذَيه و بدأ بالارتفاع عن الأرض إلى أنْ وصل إلى مسافة ٤٠ سنتمتراً من الأرض ، ثُمَّ بدأ بالتحليق في الْهَواء ليبلغ الجانب الآخر من النهر ؛ توقَّف لَحظةً – وهو معلَّق في الْهَواء – ثُمَّ عاد إلى خيمته . هبط حتى جلس من جديد على الأرض و فتح عينَيه ببطء و قال لـــ**بوذا** :
- "ما رأيكَ ؟" ، و سأله **بوذا** بدوره :
- "كَم مِن الوقت كلَّفكَ تعلُّم التحليق و التنقُّل في الْهَواء ؟" ، ظل الشامان يُحدِّق في **بوذا** ثُمَّ خفض رأسه وكأنه يفكِّر في الرد ، و أخيراً قال :
- "لَم يكن ذلك سهلاً ، تلزم سنوات كثيرة من النظام الصارم لتحقيق ذلك . أنا مثلاً أمضيتُ عشر سنوات أمارس التنسُّك قبل بلوغ ذلك" ، نظر إليه **بوذا** بشيء من الدهشة و ردَّ عليه غير متأثر :

- "عشر سنوات ؟! و لكنَّني عبرتُ الجسر إلى الطرف الآخر في خَمس دقائق !" .

فعلاً ، فلماذا أنفق عشر سنوات من المعاناة التنسُّكية إنْ كنتُ أمتلك قدمَيْن و يدَين تسمح لي في خَمس دقائق باجتياز النهر عبر الجسر ؟ فليس علم الشامان بمفيد دائماً . لكنَّ الشامان يعلم أنَّ الناس لا تسير على تفكير و لا على منطق ، و أنَّ الغموض و كل ما هو خارق يفتنهم ، فالشامان فاتن ، و من الواضح - بالنسبة إلى قبيلته - أنَّ مَن يقدر على التحليق يتفوق على من يَحتاج إلى الجسر لعبور الأنْهار . لكنَّ **بوذا** يعلِّم الشامان أنه أضاع عشر سنوات من عمره لاكتساب قدرات تسمح له بفعل ما يستطيع الْجَميع فعله في خَمس دقائق .

و هذا هو ما نقوله لِربَّة البيت التي تتمكن من توصيل أسلاك غسالتها مباشرةً و من دون الحاجة إلى استخدام أزرار لوحة التشغيل بعد أسابيع و أشهر من التجارب : "أنا برمَجتُ غسالتِي لِكي تنظف الملابس المتسخة في ١٥ ثانية ، بينما أنتِ احتجتِ إلى ٦ أشهر للوصول إلى النتيجة ذاتِها" .

وكذلك العلماء ، فإنهم الشامانات الْمُحدثون الذين أنفقوا عشرات و آلاف الملايِيْن من الدولارات ليصلوا إلى القمر (إنْ كانوا حقًّا فد وصلوا !) [٢] و ليكتشفوا أنه لا يَحوي غير الحجارة والْحُفَر . و بما أنهم شامانات جيِّدون فَهُم يعرفون أنَّ الناس تتحرك بالرموز ، و النُّزولَ على القمر هو رمز ذو قوة فائقة ، فمَن وطئ القمر فقد فتح العالَم .

مع ذلك فمهما يفعل الشامان فانه لن يستطيع تغيير العلاقة بين الإنسان و القمر التي سبق أنْ وصفناها ، لأنَّ جَميع هذه القِوى التي تعمل بلا توقُّف - كالجاذبية و غيرها - ليس لَها من علَّة غير أنْ يؤدِّي القمر وظائفه في إنارة الليل و الإرشاد و تأشير بداية الشهور و الفصول و السيطرة على ظاهرة المدِّ و الْجَزْر .

ولكن الشامان / العالِم يتحرك على أرضية هي أخطر من ذلك بكثير . لِنفكِّر مثلاً في الطاقة النووية . مجموعة من الشامانات

(٢) لِمزيد من المعلومات حول ذهاب الأمريكان إلى القمر انظر : *We never went to the moon: America's thirty billion dollar swindle* لـ **Bill Kaysing** ، Holy Terra Books ١٩٩١ Soquel (California) .

الْمُحدثِيْن تكتشف أنه بتجزئة نَوَاة الذرات الثقيلة تتحرر كمية كبيرة من الطاقة ؛ و بِهذه الطريقة تولد القنبلة الذرية ، و معها أسلحة الدمار الشامل التي من ضمنها الأسلحة الكيميائية و البيولوجية .

المنافقون يتكلمون عن عظم فائدة هذه الطاقة التي – و إنْ كان مُمكناً استعمالُها على شكل قنابل للقتل الجماعي – فإنَّ من الممكن كذلك استخدامها لعلاج أمراض كالسرطان ؛ لكن الصحيح هو أنَّ عدد الأشخاص الذين تقتلهم هذه الطاقة و عدد المرضى الذين يعالَجون بِها يتمثل في نسبة ١ / ١٠٠،٠٠٠ لصالِح ضحايا الطاقة النووية ! يكفي أنْ نتذكر أثر القنابل التي ألقاها الأمريكان في هيروشيما و ناغازاكي ، و التي قضتْ في دقائق قليلة على نصف مليون روح ، ما عدا أولئك الذين ماتوا في الْخَمسِيْن سنة اللاحقة بسبب حالات السرطان المختلفة التي سبَّبْتها الإشعاعات القوية . في مقدورنا أيضاً أن نتذكر كارثة الْمُفاعل النووي في تشرنوبل – في الاتّحاد السوفييتي سابقاً – و التي تسبَّبتْ في موت الكثيرِيْن و في إلْحاق الدمار الشامل في المنطقة حيث لَم ينبت فيها عود واحد من العشب ! نعلم علم اليقِيْن أنَّ كوارث أخرى كثيرة وقعتْ في الكثير

من المفاعلات النووية الأخرى ، و لكنَّهم تكتموا عليها لأنها كانتْ أقلّ شأناً .

فلماذا حدث ما حدث ؟ لأنَّ القِوى الشامانية الكبيرة تلاعبتْ بالجزء البُنيوي من الكون ، و سيطرتْ على قوى و طاقات منحتْها قدرات كبيرة ، و لكنها تسبَّبتْ في دمار رهيب للبيئة و عدد لا يُحصى من الضحايا البشرية .

لقد نشر هؤلاء الشامانات تأثيرهم و منهجهم في جَميع مناحي الحياة . يكفي أنْ نذهب إلى إحدى المستشفيات لنتأكد من ذلك : إنها مليئة بالأجهزة التي لا يُحسِن استخدامها إلا هم ، و التي تبدو أنها الحل لِجميع الأمراض . لَهم غُرَف مخصَّصة للمرضى الذين يعانون من حالة خطيرة جدًّا ، و الذين يربطون بواسطة الأنابيب إلى ماكينات رقمية و يظلّون معزولِيْن إلى أنْ يَموتوا ! و حينها يعلن الشامان – الذي يرتدي الصدرية البيضاء – لأقارب المريض أنهم فعلوا كل ما في وسعهم و أنَّ الوفاة كانتْ حتمية .

الشامان حاضر الجواب دائماً . هو يتكلم مع الأرواح – التي يسمُّونَها اليوم «أسباباً علميةً» – و التي لا تقبل المناقشة كما كانتْ

مقاصد الأرواح من قبل غير قابلة للنقاش . لقد تركنا أنفسنا تحت تصرُّف الشامانات ، فهم الذين يوجِّهون حياتنا ، أما نحن فننحني أمام قدراتِهم السحرية .

و ما الفلاسفة – في هذا المعنَى – إلا شامانات يرتدون القبعة البيضاء و يستخدمون القِوى الداخلية للإنسان لِمحاولة تفسير الأسباب الأولى و تفسير مفهوم الكَيْنونة و مظاهر ميتافيزيقية أخرى، و لكن : ما الذي يبحثون عنه في الحقيقة ؟ إنهم – قبل كل شيء – مشوَّشون بسبب مفهوم الرب الواحد الخالق و القابض على كل شيء . الفيلسوف – الذي هو شامان الذكاء و التعقل – لا يدري ماذا يفعل بِهذا الإله الذي يُجرِده من دوره القيادي في القبيلة ، ولذلك فهو يُحوِّله إلى «العلة الأولى» لكل شيء ، ثُمَّ يحنطه من بعد ذلك لِكي يكون هو مَن ينطق بلسانه و يترجم معارفه ؛ و يبقى الفيلسوف / الشامان ليس راضيٍ ، إنه ما زال قلقاً ، فمِن الأفضل تغذية الشكِّ : "نحن في الواقع لا نعرف مَن خلق الكون و لا من خلقنا نحن ، لكننا نبحث في ذلك و مِن خلال المنهج العلمي – الذي هو أعجوبة الشامان الجديدة – سنتمكن من معرفته" .

بوصولنا إلى هذه النقطة نفهم تَماماً الدور الكبير الذي لعبه الشامان الكبير **داروينْ** (Darwin) [٣] عندما قدَّم في مَحفل لـــ«السَحَرة» اقتراحَه الكبير حول التطوُّر :

ليس هناك خلق بل هناك تطوُّر ، فكل شيء يتطور بذكاء على الرغم من عدم وجود الذكاء .

---

(٣) **تشارْلزْ رُبَرْتْ داروينْ** (Charles Robert Darwin) عالِم في التاريخ الطبيعـــي و طبيب بريطاني ، واضع نظرية التطوُّر : وُلد في شرْوُشَـــري (Shrewshury) - شرْبْـــشَرْ (Shropshire) - بريطانيا ١٢ شباط عام ١٨٠٩ م . في عام ١٨٢٥ م تَخرَّج في ثانويـــة شرْوُشَري و تابع دراساته في جامعة أدنبرغ (Edinburgh) ، و لكن في عام ١٨٢٧ م ترك كلية الطب الذي كان يدرس فيها و دخل جامعة كامْبريجْ (Cambridge) ليصبح وزيـــراً للكنيساة البريطانية . تَخرَّج في تلك الجامعة عام ١٨٣١ م ؛ دُعي للمشاركة - مـــع علمـــاء آخرين - في رحلة حول العالَم على مَتْن سفينة بيگلْ (HMS Beagle) لإجراء بُحوث في الطبيعة ، و بعد رجوعه إلى بريطانيا عام ١٨٣٦ م بدأ بتأليف أعمالـــه . أصـــبح عـــضواً في «الجمعية الملكية» (Royal Society) عام ١٩٥٢ م و في الْمَجمع الفرنسي للعلـــوم عـــام ١٨٧٨ م . توفي ١٩ نيسان ١٨٨٢ م و دُفن في دَيْر وَسْتْمينْسْتَرْ (Westminster) .

إنه إله غريب بعض الشيء ، سندعوه منذ الآن «التاريخ» .

و عندما يهدأ روع القبيلة يستعيد الشامان هيبته ، فـــ«التطوُّر» و«التقدُّم» ستكونان الكلمتَيْن الجديدتَيْن السحريتَيْن للشامان .

و لكن لا بُدَّ للميزان من كفتَيْن لِكي يتمكن من أداء وظيفته، فإذا كان أحد الكفتَيْن يُمِّثل السحر و نظام القوة ، والتفسير لديه : تطور / تقدم / منهج علمي ، فماذا يمثل الآخر ؟ إذا تذكَّرنا قصة **موسى** و سَحَرة / شامانات **فرعون** فسنتنبه إلى أنَّ الشيء الوحيد الذي يُمكن أنْ يقف في مواجهة هذا المسرح التنفيسي السحري هو «النبوة» ؛ فإزاء هذا الشامان المصقول بثيابه الزاهية و وجهه الملطخ بالألوان البَراقة يقف النبِي ، أي : الشامان النقيض و فاضح ألاعيبه .

و إذا كان الشامان هو المتلاعب بالجزء البُنيوي من آلية الوجود و الكون فإنَّ النبِي هو مَن يعلِّم الناس استعمال لوحة التشغيل لِهذه الآلية نفسها . هذان الموقفان المختلفان هُما انعكاس لِمظهرَين ذات طبيعة إنسانية : تكبُّر الشامان في مواجهة خضوع النبِي ، و لكن : ما هو أصل التكبُّر عند الشامان ؟ في الواقع إنه هو

التكبُّر نفسه دائماً ، هو مُحاولته أنْ يَحل مَحل الإله و أنْ ينوب عنه و يأخذ دوره ، و أنْ يكون معبوداً تَهابَه القبيلة .

على الرغم مِن أنَّ **آدم** كان يعيش في الجنة و يَمتلك كل ما حلم به الإنسان على الأرض فإنَّ رضاه الأبدي لَم يتحقق إلا مِن خلال امتلاك «القوة المطلقة» ، و امتلاك القوة المطلقة هذه ما كان ليكتمل إلا بأنْ يكون فوق الإله و بخضوع الله نفسه ، فهل يُمكن أنْ يكون هناك خديعة ميتافيزيقي أكبَر من هذا ؟! مع ذلك فإنَّ الرغبة في «المطلق» هي من الضخامة بِمكان في الكائن البشري بحيث تكفيه هَمسة لِكي يبدأ الأمل يساوره في إمكانية بلوغه . وهكذا يأكل **آدم** من التفاحة ... و يتساوى **فرعون** في القوة مع إله **موسى** – عليه السلام – و يريد الشامانات العلماء أنْ يلغوا بصَرَخاتِهم السحرية الرغبة في عبادة الخالق الذي يَسكن قلوب البشرية جَمعاء .

أما بالنسبة إلى الشامان فإنَّ الإله هو عدوُّه و هو منافسه ! والشامان يقود القبيلة صوب نفسه و يتحول هو إلى الغاية الأخيرة لوجود القبيلة ، فهو الوسيلة و هو الْهَدف . الشيء نفسه يَحدث

فيما يُسمَّى بـــ«الْمُجتمعات الغربية» حيث تكون الدولة – و هي مَجلس الشامانات الكبير – هي الغاية و هي الوسيلة ، فكل شيء يُنظَّم لِكي تعيش الدولة و لِكي تكون مَحمية . و كل شيء مسموح للدولة ، و على الرغم مِن أنَّ جَميع دساتير العالَم تُدين الْجَرِيْمة فإنَّ الدولة يُمكنها أنْ تقتل إنْ كان في ذلك حِماية لَها ، لِكي تستطيع أنْ تستمرَّ في القيادة و لِكي تستطيع أنْ تَمتلك السلطة؛ في إمكانِها أيضاً أنْ تسرق و أنْ تدمِّر و أنْ تغشَّ ، فلا شيء يعلو عليها ، فبها تبتدئ علة الوجود و الكون و بِها تنتهي . وكل شيء يجب أنْ يخضع لَها ، كل شيء يجب أنْ يخضع للشامان ؛ و لِهذا يُسمِّي نفسه «علمانيًّا» ، و لِهذا فإنَّ شعاره المفضَّل هو : إنَّ الله قد مات ! إنْ لَم يكن هناك إله فما الذي يُمكن أنْ يكون فوق الدولة و فوق سلطة الشامان ؟

مع ذلك ، فأمام هذا المنظور البائس تُصاب القبيلة باليأس وتفقد اهتمامها بالحياة ، و هي ترى وجوداً بلا أفق ؛ و لكن هذا لا يهمُّ ، لأنَّ الشامان سيحضر وصفةً تَجعل القبيلة تنسى و تتسلَّى وتنخدع ، فالشامان يعرف كيف ينقل قبيلته إلى عوالِم افتراضية ،

وهناك يكمن «الشامان التكنولوجي» : يعرض كل سحره و يغطّي بالنسيان قلوب البشر .

يطرح الإنسان الأسئلة و لكن الشامان يردُّ عليها باللهو والرفاهية ، و هُما من أكبَر إنْجازاته . يعرف الشامان جيِّداً أنَّ الإنسان لا يغامر فيما يَجهله ، فهذه الحياة – على الرغم من بؤسها – هو ما يتمسك به الإنسان ، و هو ما يَجعله غير مبال بالوعد بِحياة أخرى ، إنه يريد أنْ يتمتع هنا و الآن ، و الغد بالنسبة إليه غير موجود ؛ لقد نسي أنَّ حالة الإنسان هي – قبل كل شيء – حالة المسافر : أو ليس الميلاد جسراً بين عالَم و عالَم آخر ؟ و هل في إمكان جنِيْن أنْ يتصور ما ينتظره في الطرف الآخر من النفق الذي يفصِله عن عالَم مختلف ؟ أليس من المريع أنَّ عليه استخدام الرئتَيْن للتنفُّس و أنْ يكون في وسط صاخب و مليء بالألوان ؟ أليس المنام سفراً أو رحلةً ؟

الشامان يقصر الوجود البشري على هذه الحياة ، لكنه لا يفسِّرها . ما يقدِّمه إلى قبيلته هو نَمَط من الحياة المضمونة و

الجماعية، و أية مُحاولة للإطاحة به ستحكم على القبيلة بنفي دائم ، فيوافق الْجَميع و لا يتساءل أحد .

قبيلة **إبراهيم** – عليه السلام – تُدرِك أنَّ من العبث عبادة أرباب صنعوها هم بأنفسهم ، و لكن اتِّباعهم و تَحطيمهم سيعنِي ضياع نَمَط حياتِهم الرائعة . والشيء نفسه حدث مع **فرعون** الذي يلاحظ أيضاً منطقية كلام **موسى** – عليه السلام – و لكن يبلغ مسامعه هَمس مُماثل : "إنِ استمعتَ إلى **موسى** فستفقد نَمَط حياتكَ المدهش !" .

و في النهاية يُحاول الشامان تَحدِّي النبِي . الشامانات يستخدمون القدرات التي حصلوا عليها من التلاعب بالجزء البُنيوي من الآلية ، لكن النبِي يستخدم القوة التي تصلِ إليه مباشرةً من مصمِّمِ هذه البُنية الوجودية ، و هكذا يفهم الشامان أنَّ قدراته وهْمية ، فقد مضتْ سنوات حتَّى استطاع أنْ يُحوِّل العصا إلى أفعى، و هو نفس ما حدث لــ**بوذا** ، و لكن عصا **موسى** – عليه السلام – تتحول إلى أفعى حقيقية و تبتلع بقية الأفاعي ، فكيف

حدث هذا ؟ النبي لا يُتقِن السحر بل يخضع ببساطة إلى خالق كل شيء ، و حينئذ يقوم هذا الخالق بالفعل ، و فعله لا يقاوم .

النبِي رسول و وسيط ، و أهَمِّيته تكمن في هذه الوظيفة وحسب . يتعرض النبِي للإهانة ، و يختفي هو لِكي يكون الخالق هو مَن يَبْرز و مَن يُعتدُّ به ؛ أما الشامان فيُخفي الأرواح لِكي يكون هو مَن يعتد به . النبِي ليس هو نِهاية في حدِّ ذاته ، بل هو قرينة تشير إلى الخالق ، كلماته مُمْلية عليه ، و هو يكتفي بترديدها ؛ أما الشامان فهو خالق كلمات ، يخترع الرسالة و ينقلها بنفسه إلى البشر .

و هكذا نرى أنَّ السحر يشكِّل منظومةً كاملةً ، و أنه تسمية أخرى من مسمَّيات الكُفْر و التغطية على الحقيقة . في كتابه *الصوفية و الطاوية* ينبِّه **تُشيهيكو إيزوتْسو** (Toshihiko Izutsu) إلى هذه الظاهرة و يقول :

> (...) للأسطورة التي تربط مؤلِّف **تاوْ تِي كينْغْ** (Tao Te King) بدولة «شُو» دلالة كبيرة عندي ، فهذه العلاقة لا يُمكن أنْ تكون مُجرَّد مصادفة ، لأنَّ شيئاً من

روح «شُو» يظهر على مدى الكتاب ؛ و أقصد بروح «شُو» ما نستطيع أنْ ندعوه بـــ«الاتِّجاه الشاماني» للعقل أو للتفكير الشاماني . لقد ازدهرتْ في دولة «شُو» كل أنواع الاعتقادات الْخُرافية في المخلوقات الخارقة و الأرواح، و شاعتِ الممارسات الشامانية [٤] .

لكن هذه الْمَنَاخ - البدائي و «غير المتحضر» في ظاهره - خَلَق أرضيةً مناسبةً للإلْهام الشِّعري ، كما يظهر في مَراثي **كو يُوانْ**

---

(٤) لنلاحِظْ أنه على الرغم مِن أنَّ **تُشيهيكو إيزوتْسو** يشير إلى الفلسفة الصينية فإنَّ من نمكن تطبيق ما يقول على الفلسفة اليونانية . لا ننسى أنه في زمن **أرسطو** و **أفلاطون** كان الحديث يَجري عن الآلِهة و عن الأبطال («البطل» - في اللغة الإغريقية - كائن بشري مِن نسل آلِهة) بشكل طبيعي جدًّا . **أفلاطون** في كتابه *الجمهورية* يفاجئنا بالكلمات التالية : "نزلتُ أمس في صحبة **گَلَوْكُنْ** (Glaucón) - ولد **أَريسْطونْ** (Aristón) - إلى اليِيْرَا (El Pireo) بقصد الصلاة للإلَهة **بَنْديسْ** (Bendis) و رغبةً منِّي في مشاهدة احتفالِهم ، إذ كانوا يقيمونَها لأول مرة . و بدا لي الموكب رائعاً حقًّا ، و لَم يكن أقل جَمالاً ما قدَّمه التراقِيُّون . و بعد الصلاة و التمتع بِمشاهدة الاستعراض شرعنا في العودة إلى المدينة" . معلوم من ناحية أخرى مدى ولع هؤلاء الفلاسفة المشهورِيْن بِمجالس العَرَّافِيْن .

(Qu Yuan) [٥] أكبر شاعر / شامان خلَّفْته دولة «شُو» . المناخ ذاته ولَّد نوعاً فريداً من الفكر الميتافيزيقي ، ربَّما لأنَّ التجربة الشامانية في طبيعتها يُمكن أنْ تُهذَّب و تُحضَّر لتبلغ مستوى التجربة الميتافيزيقية [٦] . على أية حال فإنَّ العُمْق الميتافيزيقي لفكر **لاوْ تْسَه** (Lao Tze) يُمكن توضيحه إذا ما رُبط بالعقلية الشامانية للصينيِّيْن القُدماء .

و في هذا الصدد فإنَّ **هَنْري ماسْپَرو** (Henri Maspero) [٧] يصيب أساساً عندما يعارض الرأي التقليدي الذي يزعم أنَّ

---

(٥) **كُم يُوَانْ** (Qu Yuan) فيلسوف و شاعر صيني : وُلد عام ٣٤٣ ق م و توفي عام ٢٩٠ ق م . لا يُعرَف الكثير عنه إلا أنه ألَّف قضيدةً اسْمها : ليساأُ (Lisao) .

(٦) نعارض **تُشيهيكو إيزوتْسو** الرأي في هذا الخصوص . لقد رأينا أنَّ الشامان يواجه - آجلاً أم عاجلاً ، و بسبب رسالات التوحيد الدائمة على يد الأنبياء - فكرة «الرب المطلق» . و أنه لا يَجد طريقةً أخرى لاعتراضها غير القول بأنه هو الرب .

(٧) **هَنْري ماسْپَرو** هو ابن العالِم المعروف **گاسْتون ماسْپَرو** (Gaston Maspero) المختصُّ بِمصر القديْمة . بعد أنْ درس التاريخ و الأدب التقى **هَنْري** والدَه في مصر . و في عام ١٩٠٥ م نشر أول أعماله : *أموال مصر تَحت شواهد القبور* . عاد إلى باريس ليحصل على شهادة في اللغة الصينية ، و في عام ١٩٠٨ م حصل على منحة بَحثية في مدرسة =

الطاوية ظهرتْ فجأةً بداية القرن الرابع قبل الميلاد مع **لاوْ تسي** على شكل ميتافيزيقية زهدية ، بل إنها تطوَّرتْ مع **تْشُوَنْغ تسي** (Tchuang Tze) نهاية القرن المذكور ، ثُمَّ اعتراها – اعتباراً من ذلك الوقت – الفَسَاد و بدأتْ تتراجع حتى سُلالة «هان» اللاحقة حين تَحوُّلتْ إلى كَوْم من الاعتقادات الْخُرافية و السحر و الشعوذة. في مقابل تلك الرؤية يعتقد **ماسْپَرو** أنَّ الطاوية كانتْ ديناً شخصيًّا ، خلافاً للطبيعية الزراعية و العمومية لدين الدولة ، لا يَمتُّ بصلة للخَلاَص الشخصي و يرجع تاريْخيًّا إلى العصور الموغلة في القدم [٨]. كانتْ مدرسة **لاوْ تْسَه** و **تْشُوَنْغ تسي** – بِحسبه – فرعاً أو

= اللغات الشرقية الْحَيَّة في هانُيْ (Hanoi) . و في عام ١٩١١ م أصبح أستاذاً مساعداً في المدرسة المذكورة .

(٨) اعتبَر الكثير من المفكّرين أنَّ التاريخ يُمثّل تيَّاراً خَطِّيًّا ، و هذا يَحول دون أنْ يروا الرابطة البينية التي تربط الأحداث بواقعها ذي المستويات المتعددة . و مع أنَّ هذا الدين الزراعي و الجماعي يبدو بالنظرة البسيطة مختلفاً تَماماً عن هذه النظرة الزهدية الأخرى ، فهو في واقع الحال الشيء نفسه ، فهو مفهوم شاماني للوجود ، و لكن على مستويَيْن مختلفَيْن : في المستوى الأول لا يتوجب على الشامان أنْ يشرح مفهوم الرب الواحد ، و يكفيه أنْ يُعنَى بالْحَصاد وسقوط المطر في الأوقات المناسبة و معالَجة المرضى ؛ أما في الحالة الثانية فإنَّ الشامان =

جزءاً من تلك الحركة الدينية الواسعة ، كانتْ فرعاً يتَّصف باتِّجاه زهدي / فلسفي واضح .

لا بُدَّ أنَّ الشامانية البدائية في الصين القديْمة حافظتْ على الخشونة الأصيلة التي هي مِن ظواهر الدين الشعبِي الذي يتَّصف بالطقوس الْمُعَرْبِدة و الشعور بالانتشاء و الشرود و الْمَسِّ الْهِستيري، لولا جُهْد كبير قام به على مدى التأريخ رجال ذَوُو عبقرية و نبوغ فريدِيْن [٩] .

= يواجه مجتمعات أكثر تعقيداً و يستدعي الشرح الميتافيزيقي للأحداث مهارةً أكبَر منه ؛ وبِمعنَى آخر فإنَّنا أمام متزامنَيْن يتعايش فيهما الساحر / الشامان و الفيلسوف / الشامان .

[٩] المؤلِّف و بقية مؤرِّخِي الفكر القديْم – إذْ لَم يفهموا هذه الجدلية التاريْخية بين الشامانية و النبوة – فإنهم يشعرون بالْحِيْرة أمام ذلك الْهُجوم المفاجئ ظاهريًّا من طرف صنعة ميتافيزيقية عالية الإتقان . مع ذلك فإنَّ الظاهرة المذكورة تفتقر إلى الغموض : الشامان يتعلم من النبي مفاهيم الزهد و الميتافيزيقيا ، و كذلك جغرافية الْجَنَّة و الجحيم . يروي لنا **ابن كثير** في كتابه *البداية و النهاية* كيف أنَّ **زُرادِستْ** قام برحلة إلى دمشق برفقة النبي **عُزَيْر** – عليه السلام – فلم يأخذ منه مفهوم التوحيد و حسب ، بل قصة **آدم** و **حواء** ؛ و عند العودة إلى بلاد فارس بدأ بالتبشير بدينه الجديد ، لكنَّه لَم يتمكن من إقامة فكر توحيدي حقيقي – كما وصفه **أرسطو** – و التزم بثنائية انتهتْ من جديد إلى شرك مثير للسخرية .

عندما نقرأ **تاوْ تِي كينْغْ** - و نحن نَحمل في أذهاننا هذه الاعتبارات - فإنّنا لا نشعر بغير حَماس رجل فذٍّ و روح فيلسوف نبيل . أنا لا أستطيع أنْ أوافق على الرأي القائل بأنّ كتاب **تاوْ تِي كينْغْ** هو عمل كامل مكوَّن من فقرات من الفكر المأخوذ من مصادر مختلفة ، لأنّ هناك وحدة أساسية في العمل ، و هذه الوحدة شخصية . كتاب **تاوْ تِي كينْغْ** هو في مجموعه عمل مكوَّن من قطعة واحدة ، مشرَّبة بشخصية رجل فذٍّ و فيلسوف / شامان (١٠) .

---

(١٠) في هذه العملية الشامانية نلاحظ كيف أنّ الشامان يتحول من رجل عام و اجتماعي وزعيم واقعي للقبيلة إلى فيلسوف ، أيْ : إلى فرد لا تفهمه القبيلة . يتحدث عن وحدة زهدية تتجاوز تلك القِوى البُنيوية التي تَحكم الشامان البدائي . إنّ الشامان / الفيلسوف يتخلّى عن وضعه ككيان اجتماعي يستخدم سحره و قدراته لِمُجرَّد قيادة قبيلته و كسب احترامها . إنّ الشامان / الفيلسوف يبتعد عن القبيلة و يختار مجموعةً صغيرةً من الأتباع و المريدِيْن . جاء وقت الغورو الْهندي و الطاوية والبوذية ، و هي جُميعها تعبير عن الشامانية التي ستأخذ شيئاً فشيئاً دورها كأديان و طرق روحانية . من الأمور كبيرة الدلالة أنّ جَميع هذه التيارات رهبانية ، أيْ : تبتعد عن الْمُجتمع و مشاكله ، و هي لا تقود القبيلة بل أفراداً اتَّخذتْهم أتباعاً، و إنْ اتَّخذتْ نفس العلاقة بالنسبة إلى الشامان ، فهو ما زال الوسيط مع الإله و «المطلق» وصولاً إلى أنْ يصبح التجسيد لِهذا الإله و ذلك المطلق . و هكذا نرى كيف يتغلغل هذا المفهوم الشاماني في المسيحية من خلال الفلسفة الزهدية / الشامانية و من خلال التركيبة الاجتماعية للكاثوليكية بقديسيها و عذراواتِها و ظهورها و بقاياها - الشامانية - السحر . =

من المهمِّ بالنسبة إلى موضوعنا الإشارة إلى أنَّ روح الشامانية المكتوبة بطريقة فلسفية تَملأ كتاب **تاوْ تِي كينْغْ** كله . و عند دراسة كتاب من مثل **تاوْ تِي كينْغْ** - فما يهمُّ هو - تلمس هذه الوحدة الشخصية الضمنية باعتبارها وحدة واحدة ، و النظر إليها على أنها مِحور هيكلي لِجميع أفكاره الأساسية .

مع **تْشُوَنْغْ تسي** نَجد أنفسنا نطأ أرضيةً أشد صلابة ، فمع أنَّنا لا نَمتلك معلومات كثيرة حول حياته و هويته الحقيقيتَيْن ، فإنَّنا نعرف - على الأقل - أنه شخصية تاريْخية عاشتْ في حدود منتصف القرن الرابع قبل الميلاد ، و أنه عاصر **مَنْثِيو** (Mencio)[11] و شاعر «شُو» الشامانِي **كو يُوانْ** الذي سبق ذكره .

= أما في الإسلام فإنَّ الصوفية هي التي تدعم نُمو تيار شامانِي حيث يتحول الشيخ - واقعيًّا - إلى الشامان الذي يعرف الطريق للاتصال بالأرواح و بالقوى الْخَفية والمتكهنة ، و إنْ ظل هذا كله مُموِّهاً بتعابير مستقاة من الشريعة .

(١١) في اللغة الصينية : **مَنْگْــزي** (Mengzi) أو : **مَنْــگْ - تْــسَه** (Meng-Tsê) ، فيلسوف صينِي : وُلد عام ٣٧٢ ق م و توفي عام ٢٨٩ ق م . كان تلميذاً لتلميذ الفيلسوف الكبير **كُنْفوشِيو** . حاول أنْ يقتع بعض الأمراء و الملوك الذين كانوا في حرب دائم بينهم بنظرياته في الحياة و الطبيعة و لكن لَم ينجح .

مشكلة العلاقة بين **لاوْ تْسَه** و **تْشُوَنْغ تسي** كانتْ موضع دراسة دائمة من قبل الفلاسفة . و كما لاحظنا فتعاليم **تْشُوَنْغ تسي** الرئيسية اعتبرتْ – تقليديًّا – مبنيةً على تعاليم **لاوْ تسي** ؛ و من هذا المنظور فإنَّ **لاوْ تْسَه** سبق – بطبيعة الحال – **تْشُوَنْغ تسي** في الفلسفة الطاوية . مع ذلك فليستِ المسألة بِهذه البساطة ؛ لقد طُرحتِ سلسلة من الشكوك حول هذا الموضوع في الزمن الحديث .

بدايةً فإنَّ كتاب *تاوْ* لَم يرد ذكره في أيٍّ من أعمال **تْشُوَنْغ تسي** ؛ أما التشابُه اللغوي فيمكن القول بأنه نتيجة لتداخلات لاحقة في كتاب *تاوْ* أو أنه حدث بسبب الأخذ من مصادر مشتركة .

يانْغ رُنْغو (Yang Rongguo) لا يكتفي بالشكِّ في أنَّ **لاوْ تْسَه** قد سبق **تْشُوَنْغ تسي** ، بل يذهب إلى أبعد من ذلك و يقلب التسلسل التاريْخي بالكامل [١٢] .

---

(١٢) هذه الاستطرادات بالغة الأهَمية ، لأنها تثبت أنَّ المعرفة العلمية الظاهرية بالتاريخ إنما تقوم على الشكِّ و على التعديل المستمرِّ . المؤلِّف يشدِّد في المقام الأول على أنَّ *التاوْ* هو كتاب ألَّفه رجل واحد فذٌّ ، كما يبدو من الوحدة الداخلية للعمل . و هو يسعد في المقام الثاني أنَّنا نعرف عن **تْشُوَنْغ تسي** – على الأقل – أنه شخصية تاريْخية . هذه في الواقع تأكيدات متناقضة ، فكيف يُمكننا الحديث عن وحدة داخلية و عن رجل فذٌّ إنْ كُنَّا نَجهل =

لِنترك هنا نصَّ **تُشيهيكو إيزوتْسو** و لنتفرغ إلى موضوع ذي أهَمية حيوية لِفهم اتِّساع الشامانية في التاريخ الإنسانِي .

لقد رأينا كيف أنَّ الشامان هو - أساساً - رجل جَماعي وموحِّد يُحافِظ على القبيلة وحدةً واحدةً و جسماً متكاملاً ، بل إنه

= إنْ كان **لاوْ تسي** قد وُجد تاريْخيًّا ؟ بل كيف نستطيع أنْ نفرح في حالة **تْشُوَنْغْ تسي** إذا رأينا أنَّ بُحوثاً حديثةً تضعه قبل *تاوْ* و ليس تابعاً له و تلميذاً ؟ و إذا كان الأمر هكذا ، و كل شيء يدل على إمكانية أنْ يكون هكذا ، فإنَّ كل معلومة حول شخصية **تْشُوَنْغْ تسي** التاريْخية تتهاوى ، فقد اتَّضح أنَّ هذه الشخصية التاريْخية التِي عاشتْ في المدينة الفُلانية من العام الفلانِي إلى العام الفلانِي قد عاشتْ في الواقع في عصر مختلف تَماماً . كما أنَّ جَميع التفسيرات التِي دارتْ حول كتابه - بفعل تعاليم **لاوْ تسي** - انْهارتْ ، لأنَّ هذا الأخير كان تلميذاً لذاك .

كل هذا الهراء من النظريات و النظريات المضادة و من التأكيدات و الرفض إنما هي نتيجة لعدم الرغبة في قبول ما شخَّصه الباحثون الأوائل في الطاوية و الفكر الصينِي مِن أنَّ مؤلِّفَي *التاو* **لاوْ تسي** و **تْشُوَنْغْ تسي** ما كانا شخصَيْن مادِّيَيْن تاريْخيَيْن ، بل كانا جَماعتَيْن من المفكِّرين / الشامانِيِّيْن الذين طوَّروا فلسفةً وُجدتْ صورتُها النهائية في هذا العمل الذي ندعوه « *التاو* » ، و الذي يتمتع بجمال أخَّاذ ، و لكنَّه لا يقدِّم غير وصف للموقف الجديد الذي يتبنَّاه قسم كبير من الشامانات ، و هو موقف يتمثل - أساساً - في تقديْم الشامان على أنه تَجسيد لـ«المطلق» ، و في إفهام المريدِيْن بإمكانية بلوغ تلك الحالة إنْ هم اتبعوا تعليمات معلميهم .

ليضحي بِحياته إنْ كان في ذلك دوام حياة القبيلة . و في هذا السياق يكتسي الفيلم السويدي The path finder (مكتشِف الطريق ، ١٩٨٠ م) أهَمية خاصةً ، إذْ يفضِّل الشامان الموت تحت التعذيب على أنْ يكشف للعدو الطريق الذي سلكتْه القبيلة ؛ فالقبيلة هي المقياس الحقيقي لكل شيء ، و هي ما يَمنح كل شيء معناه . فالشامان / الساحر إذن يؤدِّي الوظيفة التوحيدية ذاتَها التي يؤدِّيها الأنبياء الذين يتوجهون دائماً إلى شعب بعينه ؛ أما الشامان / الفيلسوف فيؤدِّي – كما رأينا – وظيفةً معاكسةً : إنه لا يُحاول إنقاذ القبيلة ، بل يَحمل بعض مريدِيْه . النبِي يُحاول دائماً إقامة مجتمع قائم على التوحيد ، بينما الشامان / الفيلسوف يبتعد عن كل مفهوم اجتماعي و ينسحب عن كل مجتمع ، و هو من ينمِّي روح الانفراد ، و لكن كل تفرُّد يَحمل في طَيَّاته – بدرجة قليلة أو كثيرة – نفوراً .

الشامان / الفيلسوف يريد أنْ يتفتَّت الْمُجتمع ، يريد الانتقام لنفسه و تدمير كل ما هو متجانس و متماسك ، إنه يعشق الفوضى و الشكَّ ، فكل شيء يبدأ به و به ينتهي كل شيء .

لكنَّ في مقدورنا أنْ نُميِّز بين نوعَيْن من الشامان / الفيلسوف :

١ - مَن يوحِّد خيال الشامان / الساحر بالعمل الميتافيزيقي.

٢ - مَن يقطع العلاقة بالشامان / الساحر و يقيم دكتاتوريةً للفكر يَحل فيها العقل مَحل فكرة «المطلق» .

ينطبق النوع الأول على الطاوية و البوذية بفروعها و الرواقية اليونانية و الزهد المسيحي و الصوفية ؛ أما النوع الثاني فيشمل الكونفوشيوسية (١٣) و الفلسفة اليونانية ما بعد السقراطية (١٤) أو

(١٣) في فقرة أخرى من كتاب **تُشيهيكو إيزوتْسو** نقرأ ما يلي : "هذه الطريقة من الفكر الشاماني تتعارض بشدة مع الطريقة الواقعية و العقلانية التي تُمثّل النظرة التقشفية الأخلاقية لـ**كُنْفوشِيوسْ** و أتباعه" . و كما رأينا فالكونفوشيوسية لا تختلف عن الشامانية إلا في طريقتها العقلانية .

(١٤) **أرسطو** و **أفلاطون** و كل الفلسفة الأوربية اللاحقة من **أسپينوثا** و **كانْتْ** و **هيجيل** .

الفلسفة الوضعية الأوربية و صيغتها اللاحقة العلمية و التكنولوجية و جَميع الطبقات الرهبانية من أيِّ دين كان .

مِن المناسب أنْ نتساءل عن مصدر الْمَجموعة الثانية . لو دقَّقنا البحث في الأماكن و العصور التي نَمتْ فيها هذه الْمَجموعة وتطوَّرت لَرأينا أنَّ أصلها هو الْمُجتمعات الْمُحاربة و الإمبريالية .

الشامان / الفيلسوف - و هو الذي لا يؤمن بوجود إله خالق لكل شيء بل بقوة عاقلة يُمكنها أنْ تفسِّر كل شيء و تعطي معنىً لكل فعل إنسانِي - يقترح لمفهوم الأخوة العالَمية للشامان / الساحر و للأنبياء نظاماً أخلاقيًّا جديداً يُبَرِّر قوة السيطرة الذي يعتاش عليه ؛ فلعلم التاريخ الإغريقي كله هدف وحيد يتمثل في تبرير محاولات الغزو التي قام بِها الإغريقيون ضدَّ الشرق المليء بالثروات .

مظهر آخر من المظاهر التي رأيناها في الشامان / الفيلسوف من النوع الأول - أيْ ذلك الذي يوحِّد الرؤية الْخَيالية للشامان / الساحر بواسطة الفكر الميتافيزيقي - و يتمثل في اتِّحاده مع ذلك

«المطلق» الذي لَم يكفَّ الأنبياء عن التبشير به في كل زمان و مكان.

نعود إلى نصِّ تُشيهيكو إيزوتْسو لنقرأ :

يتحدث لاوْ تْسَه عن شَنْغْ رَنْ (Sheng Ren) أو «الرجل المقدس» . إنه واحد من المفاهيم المفصلية في نظرته الشمولية الفلسفية ، و هو - بِهذا الوصف - يلعب دوراً بالغ الأهَمية في فكره . «الرجل المقدس» هو الذي بلغ المرتبة الأسْمى في الاهتداء إلى «الطريق» ، و في درجة الاتِّحاد به و التصرُّف بِحسب ما يُمليه عليه «الطريق» [(١٥)].
في هذا المعنَى يتحدث كذلك تْشُوَنْغ تسي عن زَنْ رَنْ (Zhen ren) أو «الرجل الحقيقي» ، و عن زي رَنْ (Zhi Ren) أو «الرجل المتطرف» ، و عن شَنْ رَنْ (Shen ren) أو «الرجل الخارق» . الرجل المشار إليه بِهذه الكلمات الثلاث ما هو في الواقع إلا شامان / فيلسوف

(١٥) أمام السؤال الْمُحتمل حول السبب و الكيفية التي يَحصل بِها الشامان على هذه المرتبة العليا من الفراسة و المعرفة ظهرتْ فكرة «التجسيد» .

صقلتْ نظرته الملهمة للعالَم و أتقنتْ حتى تَحوَّلتْ إلى رؤية فلسفية للكائن (١٦) .

و سنجد هذه الظواهر نفسها في الرواقية الإغريقية :

أرى رجالاً يردِّدون حكم الرواقيِّيْن ، ولكني لا أرى رواقيين . عرِّفْني ، أرجوك ، على رواقي واحد ؛ أريد أنْ أرى رواقيًّا واحداً . رواقي ، أيْ : رجل يشعر بالسعادة وهو مريض ، و يشعر بالسعادة و هو يتعرض للإذلال والكذب . فإنْ لَم تستطع أنْ تعرض عليَّ هذا الرواقي الكامل التام فأرني – على الأقل – واحداً هو في سبيله لأنْ يكون كذلك (١٧) .

و لنتأمل الآن كيف يعرِّف **تُشيهيكو إيزوتْسو** الشامان :

الشامانية ظاهرة يتَّصل فيها عَرَّافٌ مُلْهَم – و هو في حالة ذهول – بكائنات خارقة أو بآلِهة أو بأرواح . و كما

---

(١٦) قد يتوجب الحديث عن اتِّصال أو لقاء بين مفهوم الشامانية و النبوة أكثر من الحديث عن صقل للشامان ، إذْ لا يفسِّر هذا القول أيُّ شيء .

(١٧) *مقابَلات* لــ**أبيتتو** (Epiceto) : ج. ٢ ص. ٤٩ .

نعلم فإنَّ رجلاً يعيش في مجتمع بدائي و يَمتلك هذا الاستعداد الطبيعي يَميل إلى القيام بدور الوسيط بين قبيلته و العالَم غير المرئي .

و هنا نَجد مظهراً رئيسيًّا آخر يُميِّز الشامان عن النبِي : المخدِّرات .

لقد تكلمنا لمرات كثيرة عن قدرة **الشامان** على الاتصال بالأرواح ، و لكن : **ماذا يعنِي في الواقع أنْ يتكلم الشامان مع الأرواح أو يستمع إليها أو يفهمها ؟** ثُمَّ : إلى أية أرواح نشير ؟ لفهم ذلك علينا أنْ نعي أنَّ **الشامان** يدمن المخدرات لِغرض الانفصال عن القبيلة و اكتساب القوة ؛ إنها الرحلات الشامانية التي يشرحها **تُشيهيكو إيزوتْسو** لنا بوضوح في الفقرة التالية :

> تتمثل إحدى العلامات البارزة في العقلية الشامانية في ظاهرة النظرة الأسطورية إلى الأشياء . الشامانات – بنظرتِهم المنتشية الشاردة النموذجية – يدركون أشياء تختلف تَماماً عن تلك التي يراها الناس العاديون في حالتهم الطبيعية و عن طريق تَجربتهم الْمَحسوسة ، و هو ما يؤدِّي بِهم إلى

تفسير العالَم و تنظيمه بطريقة مختلفة . ما يُميِّز تَجربتهم عن الواقع هو أنَّ الأشياء تظهر في وعيهم «التخيُّلي» على شكل رموز و أساطير ؛ العالَم الذي يراه الشامان – و هو في حالة غيبوبة – هو – بِحسب التسمية الصائبة التي يطلقها **هَنْري كُرْبِيْنْ** (Henry Corbin) – عالَم من «الخيال الإبداعي» ، و إنْ كان عالَما فظًّا و بدائيًّا . في هذا المستوى من الوعي تتخلَّى الأشياء التي ندركها في وسطنا عن نَمَط وجودها الطبيعي و المتعقل لتتحول إلى صور و رموز .

المصطلح الذي يستعمله **تُشيهيكو إيزوتْسو** هو مصطلح ساذج ، فماذا يقصد عندما يتحدث عن «غيبوبة» ؟ بالطبع إنه يشير إلى حالة معيَّنة من الإدراك ينتج اصطناعيًّا بفعل مُخدِّر ، فما يتَّصل به الشامان ليستْ هي الأرواح و لا الآلِهة ، بل عالَم من صنع خياله الذي نشطه بالمخدرات . عالَم يراه شيئاً فشيئاً حقيقيًّا ، عالَم لا قدرة لأحد على وُلُوجه إنْ لَم يكن تناول تلك المخدرات ذاتِها أو أخرى شبيهة بِها .

هذا مظهر يُميِّز الشامان عن النبي جذريًّا . و نحن هنا لا نُميِّز بين الشامان / الساحر و الشامان / الفيلسوف ، فكلاهُما يَحتاج إلى المخدرات لتنشيط خياله و إدراكه .

لكن هذا العالَم الأسطوري و الْخَيالي الناتج عن المخدرات سيولِّد غموضاً . لا أحد يفهم الشامان ، و لذلك فلا أحد يفهم الآلِهة . «مخدرات» و «غموض» هُما الأعمدة التي تقوم عليها القدرة الشامانية .

الأنبياء وحدهم هم الذين لا يتناولون أيَّ نوع من المخدرات، و رسالتهم وحدها هي الْخَالية من أيِّ غموض أو سرٍّ . و ليس النبِي وسيطاً و لا مفسِّراً لـــ«المطلق» ، بل هو فاتح شفرته ، فهو يفكُّ شفرة رسالة إلَهية عن طريق كلمات مفهومة و واضحة .

يكتسب الشامان المعرفة عن طريق سلسلة من الممارسات تتضمن المخدرات - كما قلنا - و الرقص بِحركات متكررة ومستمرة تُحدِث نوعاً من الاسترخاء و تغييراً في الإدراك . الشامان من خلال هذه الممارسات يستعرض مستوى آخر من الوعي الْخَيالِي سيدعوه «الواقع الحقيقي» ، و لكنها ليستْ إلا العالَم الوهْمي الناتج

عن اضطراب الوعي بسبب تناول نوع من المخدرات و الرقص على إيقاعات استرخائية مدروسة بعناية .

من المهمِّ فَهْم هذه النقطة جيِّداً ، لأنها ستكون المفتاح لفهم بعض الممارسات الصوفية التي سندعوها من الآن فصاعداً بـــ«الممارسات الشامانية» .

رأينا أنَّ لا وجود للمخدرات في التراث النبوي . و هذا سيلجئ الصوفِي إلى استعمال طُرق أخرى لإحداث التأثير المطلوب . تشتمل هذه الطرق على الرقص الإيقاعي – الذي يجري في بعض الحضرات – و الإيْحاء الذاتِي و الْخَلوة التي تتمثل في إمضاء عدة أيام في غرفة صغيرة من دون ضوء و لا ضوضاء ، و تناول قدر نَزْر من الطعام . هذه الممارسة – الموجودة في بوذية التِبَتْ [١٨] – تُحدِث تغيُّراً في حالة الإدراك لدى المريد ، من خلال أصوات

(١٨) عندما وصل المصلِح البوذي التِّبِتِي **ميلارَبا** (Milarepa) إلى القرية التي يسكنها معلّمه كانتْ أُولى الممارسات الشامانية التي خضع لَها أنه أمضى ١٢ يوماً مَحبوساً في غرفة صغيرة من دون ضوء و لا ضوضاء ، و يقدَّم له النَّزْر القليل من الطعام .

ورُؤًى ناتِجة عن حالة الصمت و الظلمة المطلقتَيْن ، و سَيَرى فيها المريد رحلةً إلى «الألوهية» .

جَميع الخواطر العقلية التي تَرِد إلى ذهنه مأخوذة من سياق منطقي و عقلانِي و مَحمولة من ذلك العالَم الرمزي للشامان . بعد هذه التجربة - كما في حالة الغيبوبة الشامانية - يكتسب المريد مرتبة «الرجل الكامل» و «الرجل العالِم» ، و هو - بالمختصر - تَجسيد لـ«المطلق» و لـ«الإله» .

قلنا في بداية هذه المقالة أن لا وجود إلا لطريقتَيْن لفهم الوجود و المعرفة : طريق الشامان و طريق النبي . و تبلغ الأمور من الجذرية و الحسم أنَّنا إنْ لَم نتكيف على الطريق النبوي فإنَّ ما نفعله هو السقوط في الطريق الشامانِي ، و هو التحوُّل إلى شامانات أو مريدِين لَهم .

رأينا أنَّ لا وجود للمخدرات و لا للأسرار في الطريق النبوي، كما لا وجود لمارساتِ خاصة لاكتساب معرفة ما ، ففي الطريق النبوي كل المعرفة تأتِي من الله الخالق ، و في غير مقدور الإنسان أنْ يكتسب ذرةً من المعرفة إنْ لَم يَمنحها إياه الخالق . وهذا

هو ما سيحمل المريد في الطريق النبوي على الخضوع و على الإقرار المتأصل بأنه مخلوق ، بِمعنَى أنَّ الخالق صنعه و دعمه و بأنه - لِهذا - لا وجود مستقل له غير موجود في ذاته .

و سيتمثل عمل النبِي في نقل ما حرَّمه الله و ما أجازه أو أوصى به . و النبِي يتلقَّى - مع الكتاب - الحكمة التي يعلِّمنا من خلالِها تعاليم الخالق في الحياة العملية ، بِمعنَى أنه يعلمنا السلوك ويعلمنا نَمَطاً في الحياة (الملَّة) تساعد على العبادة الصحيحة لله .

الطريق النبوي ينظر إلى الوجود الإنسانِي على أنه رحلة خالدة ، لكل مرحلة من مراحلها شكل مختلف و حالة وعي مختلفة ، و جسد و بُنية عقلية مختلفان ؛ أما الحلم الشامانِي فيتمثل بالرغبة في الحياة ، في جَميع المراحل و في وقت واحد ؛ و هو وضع مُخطئ يَحمله إلى ما هو عكس ذلك تماماً ، أيْ إلى ألا يتمتع و لا يتأمل أيًّا منها . و هكذا نرى كيف أنَّ الشامانية هي انعزال و ترهُّب وانفصال ؛ الشامان في العادة لا يتزوج و ليس له أولاد و لا يعمل ولا يكافح ، و يعيش معزولاً و منفصلاً عن الْمُجتمع .

لنحلِّل سِيَر كبار العلماء الطاوِيِّيْن و البوذِيِّيْن و الزهدية النصارى و الفلاسفة الأوربيِّيْن و رجال العلم و أساتذة التصوُّف .

كان أغلبهم عُزَّاباً و عاشوا حياةَ درس أو في كهوف ، منفصلِيْن عن أيِّ نشاط اجتماعي [١٩] .

و لكن إنْ حلَّلنا سِيَر الأنبياء لوجدنا العكس من ذلك تَماماً، فقد كانوا رجالاً تزوجوا من أكثر من واحدة ، و لَهم أولاد يربُّونَهم و أعمال يعيشون منها ، يقودون أُمَماً و يقاتلون مَن يريدون إخضاعهم و يبنون الْمُجتمعات ؛ تلك هي الحياة في هذه المرحلة التي يُمكننا أنْ نسميها بـ«الحياة على كوكب الأرض» . لا توجد

---

[١٩] يَجدر بالتذُّكر أنَّ الطاوية و البوذية و المسيحية هي أديان أو طُرق روحية رهبانية حيث لا يتزوج المعلمون و لا التلاميذ ، و عليهم أنْ يعيشوا مُجتمعِيْن في أديرة بعيدة عن المدن و عن كل مجتمع . نعلم أيضاً أنَّ الكثيرين من الفلاسفة الأوربيِّيْن المشهورين لَم يتزوجوا وعاشوا حياة سبات غير اجتماعية . أما التصوف فقد تشبَّع بِهذين الطريقَيْن الشامانيَّيْن : العُزْلة و الصرامة المسيحيتَيْن من جانب و فكرة الشيخ بوصفه تَجسيداً إلَهيًّا من جانب آخر . أفكاره و منهجه و أوامره لا تقبل النِّقاش ، لأنَّها لا تصدر عن فكر بشري قابل للخطأ وللنظرة الشخصية ، بل إنَّ الشيخ يتصرَّف كوسيط للإله ، و بالتالي فعندما يتكلم إنَّما يتكلم بلسان الخالق ، و لا يوجد في هذه الحالة من مَجال للخطأ .

مُمارسات خاصة ، لأنَّ النبي يعلم - و كذلك أتباعه - أنَّ كل معرفة حقيقية و كل إدراك حقيقي يأتِي من الله ، و ليس في مقدوري أنا أنْ أنال ذلك وحدي ؛ أنا خاضع للخالق ، أطيع قوانينه و انتظر - صابراً و متيقّناً - أنْ يَمنحنِي ما هو خير لي في هذه الرحلة .

الأهم بالنسبة إلى الشامان هو ترك مسافات من الرتب والمراتب ، لذلك فهو يرتدي ثياباً مختلفةً و يعتلي مكاناً يُميِّزه ؛ أما النبِي فلا يؤتِي شيئاً يُميِّزه ، هو لا يعتبر نفسه فوق الآخرين ، بل يرى في نفسه مخلوقاً كباقي المخلوقات ، و أما كونه نبيًّا فلأنها مشيئة الله .

في كثير من المناسبات أمضى مَن ذهبوا إلى المدينة بَحثاً عن النبِي ﷺ وقتاً في ذلك إلى أنْ جاءهم مَن يدلُّهم عليه مشيراً إلى أنه ذلك الرجل الذي يفترش الأرض مع أصحابه :

قال **ابن شهاب** : "فأخبرني **عروة بن الزبَيْر** أنَّ رسول الله ﷺ لَقِيَ **الزبَيْر** في رَكْبٍ من المسلمِيْن كانوا تِجَاراً قافلِيْن من الشَّأْمِ ، فَكَسَا **الزبَيْرُ** رسولَ الله ﷺ و **أبا بكر** ثِيَابَ بَيَاضٍ ؛ و سَمِع

المسلمون بالمدينة بِمَخرَج رسول الله ﷺ من مكة ، فكانوا يَغْدون كل غَدَاة إلى الْحَرَّة فينتظرونه حتَّى يَرُدَّهم حَرُّ الظهيرة ؛ فانقلبوا يوماً بعد ما أطالوا انتظارَهم ، فلمَّا أَوَوْا إلى بيوتِهم أَوْفَي رجلٌ من يهودَ على أُطُمٍ من آطامهم لأمر ينظر إليه ، فَبَصُرَ برسول الله ﷺ وأصحابه مُبَيَّضِيْن يَزُول بِهم السَّرَابُ ، فَلَمْ يَملِك اليهوديُّ أنْ قال بأعلى صوته : "يا مَعَاشِرَ العَرَب ! هذه جَدُّكم الذي تنتظرون" ، فَثَارَ المسلمون إلى السِّلاح ، فتلقَّوْا رسولَ الله ﷺ بِظَهْر الْحَرَّة ؛ فَعَدَلَ بِهم ذاتَ اليمين حتَّى نَزَل بِهم في **بَنِي عمرِو بنِ عَوْفٍ** - وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول - فقام **أبو بكر** للناس وجلس رسولُ الله ﷺ صامِتًا ، فَطَفِقَ مَن جاء من الأنصار - مِمَّنْ لَم يَرَ رسولَ الله ﷺ - يُحَيِّي **أبا بكر** حتَّى أصابتِ الشمسُ رسولَ الله ﷺ فأقبل **أبو بكر** حتَّى ظَلَّل عليه بِرِدائه ، فعَرَف الناسُ رسولَ الله ﷺ عيد ذلك (...)" الحديث [٢٠] .

(٢٠) أخرجه الإمام **البخاري** في صحيحه : كتاب فضائل الصحابة : باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة : ج. ٢ ص. ١٣٣٢ ، حديث ر. ٣٦٩٤ ؛ دار العلوم الإنسانية ١٩٩٣ م دمشق .

ما كان من شيء خارجي يُميِّزه ، فقد كان يرتدي نفس الملابس التي يرتديها الآخرون ، و يَجلس مع الآخرين على نفس المستوى . ذلك التواضع الطبيعي و الفذّ الذي كان يُميِّز الأنبياء ناتج عن فهمهم أنَّ مهمَّتهم إنما هي تبليغ الناس رسالة الخالق . إنه الوعاء الذي يَحمل العطر ، فما هو ثَميْن حقًّا هو العطر ، و إنْ كان الوعاء ضروريًّا لوصول العطر إلى صاحبها .

لا وجود في النبوة كذلك لفكرة الاحتفال كما هو الحال في الشامانية و في مجتمعاتِها ، حيث يَجري الرقص و تدور على الحضور مخدِّرات من كل نوع . يبدأ الاستعراض و كل شيء فيه مباح : رقصات و نار و مشروبات مهلوسة أو منشطة ، هذه هي لَحظة القِمَّة في الْمُجتمعات الشامانية : وقت لعبادة الآلِهة و التمتُّع بالنشوة و بالْجِنس بلا تَمييز ؛ أما الاحتفال الكبير في الْمُجتمع النبوي فيتمثل بالمواظبة اليومية ، فالأنبياء يعلِّمون أبناء عصرهم فنَّ الحياة و سعادة العيش بِحسب القواعد التي أملاها الخالق .

النبوة أم الشامانية ؟ هنا يكمن الاختيار الذي يتوجب على كل إنسان أنْ يقدم عليه لمواصلة رحلته على هذا النحو أو ذاك .

فهرس

المؤلف في سطور ١

أفكار و معتقدات ٣

حضارة و بربرية ٢٨

نبوة و شامانية ١٠٠

الفهرس ١٤٥

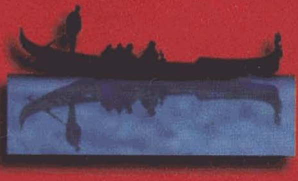

يحلّل المؤلّف - من خلال هذه المقالات الثلاثة - ثلاثَ ثنائيات مهمة جدًّا تتناول أفكاراً معاصرةً .

في المقالة الأولى : أفكار و معتقدات ، يميِّز المؤلف بين هذين المفهومين و اللذين كثيراً ما يُقدَّمان على أنهما مترادفان . عدم وضوح الرؤية هذا يضلِّل الناس بشكل يجعلهم يطابقون بين خلفيتهم الفكرية و معتقداتهم ، فمثلاً يعبِّر أحدنا عن نفسه بأنه لا عنصري و لكن لا يسمح لابنته أن تتزوج من أسود ، لقد تأصَّل في داخلنا أن الأبيض أرفع منزلةً .

في المقالة الثانية : حضارة و بربرية ، أُخضعتِ المعاني الحقيقية لهذه الكلمات لتحليل عميق ، و كيف أن الغرب استولى عليها ليقدِّم نفسه أنه الوحيد المتحضر و المتقدم ، بينما الآخرون بربريون و غير متحضرون.

في المقالة الثالثة : نبوة و شامانية ، قُدِّمتْ للمرة الأولى فكرة أن العالم منقسم إلى أولئك الذين يتَّبعون طريق النبوة و أولئك الذين يقتفون طريق الشامانية - درب السحر و القوة -الذي ينحرف بالناس عن الحق.

الناشر :

دار الثقافة والتراث
دمشق - سورية

يطلب في سورية من :
المشرق للكتاب

يطلب في لبنان من :
دار البشائر الإسلامية